كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

البناء البياني لسورة المؤمنون
في
ضوء كتاب الموافقات للشاطبي (ت ٧٩٠هـ)

إعداد

د/ ممدوح شعراوي محمود محمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد الثامن والثلاثون الجزء الثالث ٢٠١٩م)

البناء البياني لسورة المؤمنون فى ضوء كتاب الموافقات للشاطبي ت ٧٩٠

اسم الباحث / ممدوح شعراوى محمود محمد
قسم البلاغة – كلية اللغة العربية بأسيوط – جامعة الأزهر – مصر
البريد الإكتروني الجامعي :mamdouhmohammed.47@azhar.edu.eg

ملخص :

يهدف البحث بصورة مجملة إلى بيان اهتمام الإمام الشاطبي بالنظرات الكلية لمقاصد السور القرآنية في كتابه (الموافقات)، حيث كان يرى أن السورة القرآنية مبنية على قضية واحدة – في الأعم الأغلب – وإن تعددت فيها الموضوعات ، وتنوعت فيها المقاطع ، لكنها في النهاية تؤول إلى التلاحم والتكامل في بنائها البياني ، ومن تلك السور التي بيّن الإمام مقصدها الأعم (سورة المؤمنون) حيث رأى أنها نازلة فى قضية واحدة ، هي قضية الإيمان ، سواء أكان إيمانا بالوحدانية ، أم بالنبوة أم بالبعث ، وما ذكر فيها من آيات أخرى إنما تخدم هذه القضية وتؤكدها ، وقد اتبع البحث في سبيل الوصول إلى بيان ذلك المنهج التحليلي ، وكان من نتائج هذا البحث أن التقت النظرة الكلية التي قال بها الإمام حول السورة مع معاقدها التي بُنيت عليها ، فنتج عن ذلك التأكيد على دوران السورة على قضية واحدة هي قضية الإيمان ، ومنها أن الرسل اتفقت على مر العصور على دعوة واحدة هي الإيمان بالله ،واتفقت الأمم على رفض الرسالة بعلة واحدة هي بشرية الرسل ، ومنها أن الصد عن دعوة الرسل دائما ما تكون من المستكبرين .

الكلمات المفتاحية : البناء ، البياني ، المؤمنون ، الموافقات ، الشاطبي .

The Rhetorical Structure of Surat Al-Mu'minun in the light of the Book of *Al-Muwafqat* by Imam Al-Shatby, 790 AD

Researcher / *Mamdouh Shaarawy Mahmoud Mohamed*
Department of Rhetoric - Faculty of Arabic Language, Assiut - Al-Azhar University - Egypt
University email: mamdouhmohammed.47@azhar.edu.eg

Summary:

The research aims, in outlining, to show Imam Shatby's interest in the overall views of the purposes of the Quranic Surah in his book (*Al-Muwafqat*), where he believed that the Qur'anic Surah is based on one issue - mostly in the majority – even though there are many issues as well as sections are diversified therein, but in the end it leads to cohesion and complementarity in its rhetorical structures. Amongst the Surahs that the Imam indicated its broadest intention and purport is (*Surat Al-Mu'minun*) where he viewed that it has been revealed in one issue, which is the issue of faith, whether it is a belief in monotheism, prophecy or resurrection, and what other verses mentioned in it only serve this issue and confirm it. I have used the analytical method to achieve the aim of the research. One of the results of this research was that the overall view that the imam said about the surah met with its basic components that were built upon it. This resulted in the emphasis on the revolving of the surah on one issue, namely, the issue of faith, and that the messengers agreed throughout the ages on one call which is faith in the Almighty Allah. While most nations agreed to reject the message with one effective reason: the humanity of the messengers, among which is that repelling the call of the messengers was always the result of arrogance.

Key words: Structures, rhetorical, believers, Al-Muwafqat, Shatby.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا ، والصلاة والسلام على أشرف الأولين والآخرين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،،

فإن من الثابت المقرر عند أولى النهى ، أن علماء الأمة لم يطل بهم الوقوف والمقام عند كتاب يتفيئون وارف ظلاله ، ويرتون من عذب زلاله كما فعلوا مع القرآن الكريم ، ذالكم النور الذى لا يفارقه التمام ، ولا يلحقه الأفول على مرّ الليالي والأعوام ، ومن ثم ذاقوا بيانه العالي ، فاستهواهم ما فيه من حسن البلاغة ، وجميل الصياغة ، ولم يجدوا لغيره حلاوة تدانيه ، أو لذة تضاهيه ومن هنا استفرغوا كلَّ ما فى وسعهم لخدمة هذا الكتاب العزيز ، فى محاولة تتغيَا سلوك المهيع الخصيب فى استخراج دفائن أسراره والكشف عن صدفات لآلئه وأنواره .

فشمروا عن ساعد الجدّ ، وبذلوا فى ذلك غاية الجهد ، ووضعوا الهِنَاءَ مواضع النُّقْب ، مستعينين فى ذلك بإحكام الوسائل اللغوية ، وإتقان الصنعة البيانية ، وضبط أصول الاستنباط ، وسبل الاجتهاد .

فنشأ من وراء ذلك أنواع من المؤلفات العلمية خدمة لهذا الكتاب الكريم .

ومن هؤلاء العلماء الذين كان لهم القدح المعلي ، واليد الطولى فى إحكام النظر فى كتاب الله عزوجلّ ، الإمام أبو إسحاق الشاطبي [١] فى كتابه (الموافقات) حيث كان من القلائل الذين فُرق لهم فى هذا الأمر ما لم يُفرق لغيرهم ، وفُتح لهم مالم يكن لسواهم ، حيث كان ممن يرى أن القرآن الكريم تتوالى فيه السورة بعد الأخرى بنظام بديع ، وتتسلسل آيات السورة الآية بعد أختها بهيئة عجيبة ، وتتعانق كلمات الآية وتتراص بجوار بعضها كلمة كلمة ، بحيث لا تنبو كلمة عن موضعها ولا تمج الأذن لفظة فى مكانها.

ومن هنا اهتم كثيرًا بالنظر فى كليات السورة وجزئياتها ، وبيان مدى التناسب والتناغم بين الكليات والجزئيات ، حتى تأكد له أن السورة القرآنية ترمي إلى غاية خاصة ، ومبنية على قضية واحدة . فى الأعم الأغلب . وإن تعددت فيها الموضوعات ، وتشعبت فيها المقاطع ، لكنها فى النهاية تؤول إلى التلاحم والانسجام والتكامل فى بنائها البياني وتكوينها التعبيري ، لأن القول بعدم وجود التناسب ين أجزاء السورة ، ورفض النظرة الكلية فيها ، يؤدي إلى إعفاء مواطن الجمال المركب فيها ، ويجعلها أمشاجًا وأخلاطًا ، لا لون لها ولا طعم .

ومحال على من أحكم خلق الإنسان ، وجعله فى أحسن تقويم ، أن يُلقى إليه بيانًا . يتحدى به أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة . غير متسق فى تركيب

(١) هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي ، وكنيته : أبو إسحاق ، وشهرته : الشاطبي ، وأما اللخمي : فهو نسب عَائلته ، وأما الشاطبي فنسبة إلى (شاطبة) الواقعة شرق الأندلس بمقاطعة بلنسية ، حيث كان موطن آبائه ، ولد . رضى الله عنه . على أرجح ما قيل : سنة ٧٣٠هـ ، وحاز قصب السبق فى تحصيل العلوم، فكان محدثًا ثقة ، فقيهًا أصوليًا ، لغويًا مفسرًا ، من أئمة فقهاء المالكية ، وتوفى . عليه رحمة الله . سنة ٧٩٠هـ . ينظر : معجم المؤلفين . عمر رضا كحالة . ١١٨/١ مكتبة المثنى . بيروت . دار إحياء التراث العربي .

عناصره وقضاياه . ثم هو بعد ذلك لا يترك الأمر كله يجري على مهيعٍ وحيد ، أو يترقى فى منزع فريد ، بل يبين أن الأمر يختلف بحسب الوحدة التى تشكل السورة القرآنية تبعًا لاختلاف بنائها البياني ، فأحيانًا تكون السورة وحيدة الموضوع والقضية [١] وفى هذا المعنى يقول :

(إنَّ الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدًا بكلِّ اعتبار ، بمعنى أنه أُنزل فى قضية واحدة ، طالت أم قصرت ، وعليه أكثر سور المُفصَّل ، وتارة يكون متعددًا فى الاعتبار ، بمعنى أنه أنزل فى قضايا متعددة ، كسورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، وأقرأ باسم ربك ، وأشباهها ، ولا علينا أَنزلت السورة بكمالها دُفعة واحدة ، أم نزلت شيئًا بعد شيء) . [٢] ثم يضرب أمثلة على ذلك بقوله : (فسورة البقرة مثَلا كلامٌ واحد باعتبار النظم ، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها ... إلخ) [٣] ، ويقول عن سورة الأنعام : (فإنها نزلت مبينة لقواعد العقائد وأصول الدين) [٤] ، ويقول : (وسورة المؤمنون نازلة فى قضية واحدة ، وإن اشتملت على معانٍ كثيرة ... إلخ) ، (وقوله تعالى : " إنا أعطيناك الكوثر " نازلة فى قضية واحدة) . [٥]

---

(١) ينظر : جهد الشاطبي فى التفسير الموضوعي الكشفي . د/ أحمد عثمان رحماني ، ص٥٧ ، ٥٨ ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية . دبي . العدد السابع والعشرون ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

(٢) الموافقات فى أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي ٤ / ٢٦٦ تح / أبي عبيدة مشهور ابن حسن آل سلمان . دار ابن عفان . ط الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

(٣) الموافقات ٤ / ٢٦٨ .

(٤) السابق ٤ / ٢٥٦ .

(٥) نفسه ٤ / ٢٦٩ .

(وقولـه : " ويل لكل همزة لمزة " قضية عين فى رجل معين من الكفار بسبب أمر معين) [١] ... إلخ ما ذكر عن السور وقضاياها ..

ومامن شك فى أنه لا يحيط بمثل هذه النظرات ، ويكشف عن مثل هذه الكليات إلاّ عالم خِرِّيتٌ أحوذي بارع ، قد استبطن المعاني الكلية فى مجموع السور القرآنية ..

ثم هو بعد ذلك يدعو إلى السير على الدرب الذى مَهَّده فى استجلاء القضايا الكلية من خلال إعادة النظر فى مقاصد السور القرآنية فيقول : (ومن أراد الاعتبار فى سائر سور القرآن فالباب مفتوح ، والتوفيق بيد الله) . [٢]

وقد راقني ما سطره يراع الإمام حول النظرات الكلية لمقاصد السور القرآنية ، تلك النظرات النابعة من مجاورة طويلة لهذا النبع الثرّ ، وذلك الروض البديع ، وهو القرآن الكريم .

ثم كان لما كتبه شيخ عصره ، العلامة : محمد عبد الله دراز فى النبأ العظيم عن سورة البقرة ، كبير الأثر فى تحفيز الباحث فى أن يقرع حلقة هذا الباب ، مع عمله أن المقارنة لا تذكر ، فأين الثريا من ثرى الغبراء ، ولكنها محاولةُ مَنْ يتلمس طريق المعرفة ، ويخطو على درب التعلم .

ومن ثم عقدت العزم على أن تُولِّي هذه الدراسة وجهها شطر سورة من هاتيك السور التى تكلم عنها الإمام فى (الموافقات) لتكون محل النظر والدراسة .

---

(١) الموافقات ٤ / ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) السابق ٤ / ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

وعليه فجاء عنوان البحث :

(**البناء البياني لسورة المؤمنون في ضوء كتاب الموافقات للشاطبي(ت ٧٩٠هـ**)

هذا ، وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي فى مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة وبعض الفهارس .

أما المقدمة : فذكرت فيها شيئًا عن عناية العلماء بالقرآن الكريم ، وجهد الإمام الشاطبي فى هذا الشأن ، والسبب فى اختيار هذا الموضوع .

وأما التمهيد : فاشتمل على مسألتين :

الأولى : علم المناسبة القرآنية .

والأخرى : دور الإمام الشاطبي فى علم المناسبة .

وأما عن المبحث الأول فقد جاء بعنوان : (نظرة الشاطبي إلى السور المكية وتحقق خصائصها في سورة المؤمنون) .

وأما عن المبحث الثاني فكان عنوانه : (بيان الأوصاف المكتسبة للعبد) .

وأما عن المبحث الثالث فعنوانه : (أصل تكوين الإنسان واحتياجه إلى ما خلق الله) .

وأما عن المبحث الرابع فكان بعنوان : (تقرير أمر النبوة بذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم) .

وأما عن المبحث الخامس فكان بعنوان : (رفض قريش دعوة الرسول ـ ﷺ ـ وذكر النعم عليهم وحال مآلهم) .

وأما عن المبحث السادس فكان عنوانه : (الموت والبعث ومصير الفريقين) .

ثم الخاتمة وذكرت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها هذه الدراسة ، ثم يتبعها بعد ذلك فهرس المصادر والمراجع التى اعتمد عليها البحث .

التمهيد

المسألة الأولى : علم المناسبة القرآنية

المناسبة فى اللغة : المقاربة ، وفلان يناسب فلانًا : أي يقرب منه ويشاكله . [١]

واصطلاحًا : علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن . [٢]

ولا يخفى أن المراد بـ (أجزاء القرآن) ما يشمل المناسبة بين الجمل والآيات وبين السورة واسمها ، وبين أول السورة وخاتمتها ، وبين خاتمة السورة وافتتاح ما بعدها ... إلخ .

ومعرفة المناسبة بين أجزاء القرآن على نحو ما مَرَّ ، علم جليل القدر عظيم الفائدة ، ومن ثم نبّه السادة الأفاضل من علماء الأمة إلى بيان أهميته ، حيث قال عنه الفخر الرازي : (أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط) [٣] .

وقال عنه الزركشي : (واعلم أن المناسبة علم شريف تُحرز به العقول ، ويُعرف به قدر القائل فيما يقول) ،[٤] ويرى البقاعي أن نسبة علم المناسبة من علم التفسير مثل نسبة علم البيان من علم النحو . [٥]

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشي ١ / ٣٥ تح / محمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية ، ط الأولى ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي ١ / ١٤٢ . مكتبة المعارف . الرياض ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .

(٣) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير للرازي ١٠ / ١١٠ . دار إحياء التراث العربي . بيروت ط الثالثة ١٤٢٠هـ .

(٤) البرهان فى علوم القرآن ١ / ٣٥ .

(٥) ينظر : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعي ١/ ٦. الدار السلفية .

إذاً فالعلم بالمناسبات بين الآيات القرآنية فى السورة الواحدة ، أو بين السور فى القرآن كله أمرٌ ذو شأن عظيم ، لما له من الأثر البين فى الدلالة على تفسير النظم الحكيم تفسيرًا موضوعيًا ، لكونه واحدًا من العلوم الدقيقة التى تحتاج إلى فهم دقيق لمقاصد القرآن ، وتذوق رفيع للأساليب والنظوم ، ليس على مرتبة العلاقات الواضحة بين الألفاظ والمعاني ، وإنما على ما فوق ذلك من رتب تلمس ما وراء هذه النظوم من إشراقات فكرية أو روحية ، تهز الفكر هزّا ، وتمس الروح مسّاً ، ومن ثم بدت نسبته إلى علم التفسير كنسبة علم البيان من علم النحو ، لكونه يعين على تذوق النظم العالي ، ومعرفة علل ترتيبه نزولياً ومصحفيًا ، وبيان أوجه الاتصال بين السورة القرآنية وما سيقت له ، وأوجه الاتصال بين السورة وما قبلها وما بعدها ، وذلك أمر يحتمه الاعتقاد الجازم بتنزيه كلام الحق سبحانه عن المشابهة ، ناهيك عن التناقض ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء ٨٢) [١] ، من أجل ذلك كان علم المناسبة علمًا عزيزًا ، قل اعتناء المفسرين به لدقته ، واحتياجه إلى مزيد فكر وتأمل . [٢]

ومن أولئك الذين كان لهم قصب السبق فى تحبير الصحائف بما يروق القارئ عن علم المناسبة ، الإمام الشاطبي فى موافقاته ، ومن ثمَّ جاء الحديث التالي لعلم المناسبة القرآنية عَنْ :

(١) ينظر : جواهر البيان فى تناسب سور القرآن . عبد الله محمد صديق الغماري ص١٤ . مكتبة القاهرة ، ومباحث فى التفسير الموضوعي . مصطفى مسلم . ص٥٨ دار القلم . ط الرابعة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .

(٢) الإتقان فى علم القرآن للسيوطي ٣ / ٣٦٩ بتصرف ، تح / محمد أبو الفضل إبراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

المسألة الأخرى : دور الإمام الشاطبي فى علم المناسبة

كان الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ يرمي إلى الكشف عن وحدة الموضوع فى سور القرآن الكريم ، ومراده بذلك الإدراك الشمولي والنظرة الكلية لمقصود السورة ، وما تناسل منها من تفريعات تعود فى الأصل على مقصودها الأعم وهدفها الأصلي ، وكان يُعد هذه النظرة بديلاً عن التفكير والإدراك الجزئي لمعاقد السورة وما تحكيه فيها ، وهذه النظرة مهمة جدًا ؛ لأنها تحدد المنهج الذى تفهم من خلاله النصوص القرآنية ، لكونها تؤكد على أنَّ الفهم الجزئي للنصوص قد لا يفي بتحقيق المراد من النصّ ، كما أن الفهم الكلي وحده فى غياب التحليل الجزئي من أجل التغلغل فى عمق النص غير مفيد فى تحقيق الهدف [١] ، ومن ثم تراه يوجه السالكين دروب التفسير والتحليل إلى هذا المنهج ، فيقول :

(محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها ، فمن أخذ بنصّ مثلاً فى جُزْئِيٍّ مُعرضًا عن كُلِّيِّهِ فقد أخطأ ، ... كذلك من أخذ بالكُلي معرضًا عن جزئيه) [٢] فهو مخطئ ، وتراه يؤكد على هذا الأساس فى موضع آخر فيقول : (إهمال القصد فى الجزئيات يرجع إلى إهمال القصد فى الكلى ، فإنه مع الإهمال لا يرجى كليًا بالقصد) . [٣]

تلك هي القاعدة التى أسسها الإمام فى تفسير القرآن ، حيث استهدف من ورائها سبر أغوار السور القرآنية للكشف عن القضية الأم التى تنهض بها كل سورة على حدة ، ومن ثمَّ الخروج بنظرية واحدة حول الموضوع النازلة فيه ، أو

(١) ينظر : جهد الشاطبي فى التفسير الموضوعي ، ص٤٨ : ٥٤ .
(٢) الموافقات ٣ / ١٧٤ .
(٣) السابق ٢ / ٩٧ .

بتصورٍ متكامل حوله . [١]

ولأهمية النظرة الكلية فى فهم مقاصد الشارع ، بّيِّن للسالك طريق التفسير أن اعتماده على المنهج التحليلي وحده ـ دون النظر إلى التناسب بين الآيات ووجه الترابط بينها ـ لن يبلغ به المراد من التفسير ، وأنه سيظل بعيدًا عن الحقيقة الكلية [٢] ، فيقول :

فإن فرّق ـ يعني المفسر ـ النظر فى أجزائه (أي : أجزاء نصّ السورة المفسَّر) فلا يتوصل إلى مراده . [٣]

إذاً فهو يقرر أن تفسير القرآن يتوقف فى جميع الأحوال على النظرة الكلية القائمة على الاتساق الكامل ، والاعتلاق الوثيق بين جميع عناصر السورة ـ دقيقها وجليلها ، حسيها ومعنويها ـ لأن الآيات المترابطة يفهم أولها بالوقوف على آخرها ، ويتوقف فهم آخرها بالوقوف على أولها ، ليتبين للمفسِّر بعد ذلك أنّ الوحدة بكل صورها وأنواعها كائنة فيها على وجه معجز [٤] ، وتراه يؤكد هذا المعنى بقوله إنَّ (اعتبار جهة النظم مثلاً فى السورة لا تتم به الفائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر ، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود ، كما أن الاقتصار على بعض الآية فى استفادة حكمٍ ما لا يفيد ، إلاّ بعد كمال النظر فى جميعها) . [٥]

---

(١) ينظر : التفسير الموضوعي ـ نظرية وتطبيقًا ـ أحمد رحماني ص١٢٤ ـ منشورات جامعة باتنة ، الجزائر ١٩٩٨م .

(٢) جهد الشاطبي فى التفسير الموضوعي ص٦٣ بتصرف .

(٣) الموافقات ٤ / ٢٦٦ بتصرف .

(٤) وحدة السورة القرآنية بين القبول والرفض د/ محمود توفيق محمد سعد ، مجلة الفيصل ـ العدد (١١١) ـ سنة ١٩٨٦م ، ص٢٣ بتصرف .

(٥) الموافقات ٤ / ٢٦٨ .

ويضرب مثالاً على أهمية النظرة الكلية للنصّ فى الوقوف على المراد منه بقوله :

(فسورة البقرة مثلاً كلام واحد باعتبار النظم ، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بُث فيها ، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب ، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم ، ومنها ما هو المقصود فى الإنزال ، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب ، ومنها الخواتيم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك) . (١)

هذا بعض ما قرره الإمام الشاطبي عن المناسبة القرآنية بين أجزاء السورة الواحدة ؛ لإيمانه (بوجود اعتلاق جوهري بين آيات السورة القرآنية ؛ لأنه لا يعقل أن يخلو المضمون والمحتوى والجانب المعنوي والروحي للقرآن من الانسجام والاتساق ، بحيث يشعر به كل قلب أجرد فيه سراج يزهر ، بل يوقن بذلك ويذعن) . (٢)

وبعد هذه الإطلالة السريعة على علم المناسبة القرآنية ، ودور الإمام الشاطبي فيها ، يأتي الحديث عن المباحث التى اشتمل عليها هذا البحث ، لتكون البداية بـ :

(١) الموافقات ٤ / ٢٦٨ .

(٢) وحدة السورة القرآنية د/ محمود توفيق ص٢٢ .

المبحث الأول

نظرة الشاطبي إلى السور المكيّة وتحقق خصائصها في سورة المؤمنون

من المعلوم لدى أولى النهى أنّ الأمة الإسلامية قد أحرزت قصب السبق فى عنايتها بتراث الرسالة المحمدية ، ومن تلك العناية عنايتها بكتاب الله . عز وجل . من حيث قراءاته وتفسيره وتجويده وناسخه ومنسوخه والمكي منه والمدني . ... .

والناظر فى تراث الأمة يَبِيْن له أن العلماء أولوا معرفة المكي والمدني من كتاب الله . عز وجل . عناية فائقة ؛ لكونهم تتبعوا القرآن سورة سورة ، وآية آية ؛ ليقفوا على منازل الوحي الشريف ، وزمان نزوله ، من أول قوله تعالى : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ (العلق ١)،إلى آخر ما نزل كقوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ (المائدة ٣) .

ثم شفعوا ذلك بضوابط عامة غلب مجيئها فى السورة المكية والمدنية ، ومن هؤلاء العلماء الذين أدْلوا بدلوهم فى هذا المضمار :

الزركشي فى (البرهان) ، والبقاعي فى (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) ، والسيوطي فى (الإتقان) ، وجاء من بعد هؤلاء آخرون منهم الزرقاني فى (مناهل العرفان) ، والشيخ محمد أبو زهرة فى (المعجزة الكبرى للقرآن) ، ومنّاع القطان فى (مباحث فى علوم القرآن).

وقبل هؤلاء جميعًا حَبَّر الفقيه الأصولي أبو إسحاق الشاطبي فى كتابه (الموافقات) ما غلب على السور المكية من موضوعات عند حديثه عن سورة

(المؤمنون) فقال :

" وسورة المؤمنون نازلة فى قضية واحدة ، وإن اشتملت على معانٍ كثيرة فإنها من المكيّات ، وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان ، أصلها معنى واحد ، وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى :

أحدها : تقرير الوحدانية لله الواحد الحق ، غير أنه يأتي على وجوه كنفي الشريك بإطلاق ، أو نفيه بقيد ما ادعاه الكفار فى وقائع مختلفة من كونه مقربًا إلى الله زلفى ، أو كونه ولدًا أو غير ذلك من أنواع الدعاوى الفاسدة .

والثاني : تقرير النبوة للنبي محمد . ﷺ . وأنه رسول الله إليهم جميعًا ، صادق فيما جاء به من عند الله ، إلاّ أنّه وارد على وجوه أيضًا ، كإثبات كونه رسولاً حقا ، ونفي ما ادّعوه عليه من أنه كاذب ، أو ساحر ، أو مجنون ، أو يعلمه بشر ، أو ما أشبه ذلك من كفرهم وعنادهم .

والثالث : إثبات أمر البعث والدار الآخرة وأنه حق لا ريب فيه بالأدلة الواضحة ، والرد على من أنكر ذلك بكل وجه يمكن الكافر إنكاره به فردَّ بكل وجهٍ يُلزم الحجة ، ويبكت الخصم ، ويوضح الأمر .

فهذه المعاني الثلاثة هي التى اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة فى عامة الأمر ، وما ظهر ببادئ الرأي خروجه عنها ، فراجع إليها فى محصول الأمر ، ويتبع ذلك الترغيب والترهيب ، والأمثال والقصص ، وذكر الجنة والنار ، ووصف يوم القيامة ، وأشباه ذلك " . (١)

وراجع قوله : وغالب المكيّ مقرر لثلاثة معانٍ ... إلخ " وتدبر كيف كانت أساليب القرآن المكي مثل صفحة معروضة فى عقل الرجل ، بمفرداتها ودقائق فروق تراكيبها ، ووجوه جريان معانيها ، وكيف اتسعت وجوه جريان هذه الأصول

(١) الموافقات ٤ / ٢٦٩ : ٢٧٠ .

الثلاثة وتباعد كل وجه بدقائقه من هيئات المباني وأنساق المعاني ؛ لينادي على اختصاصه بسياق دون نظائره ، وكيف تقاربت هذه الوجوه جميعا ، بعد هذه المفارقات لتتماسك بجذر واحد هو الدعاء إلى عبادة الله تعالى ، فيوضع كلّ بيقين تحت قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ (الفاتحة ٥) فى أم القرآن الكريم ، كما قال عنها سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ " . (١)

وبتتبع كلام الذين جاءوا بعد الإمام فى هذا الشأن ـ على قدر الطاقة ـ يتبين أن منهم من ذكر طرفًا مما ساقه الإمام فى هذا الشأن ، ومنهم من تابع ومنهم من زاد ، ومن ذلك ما جاء فى قول أحدهم :

كل سورة فيها (يا أيها الناس) وليس فيها (يا أيها الذين آمنوا) فهي مكية ، وكل سورة فيها (كلا) فهي مكية ، وكل سورة فيها حروف المعجم فهي مكية (إلا البقرة وآل عمران) ، وكل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة ، وكل سورة فيها ذكر المنافقين فيه مدنية سوى العنكبوت ، وكل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فمدنية ، وكل ما كان من ذكر القرون الماضية فمن المكي . (٢)

وكذلك تتميز السورة المكية بما يلي :

١ـ الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده :

وذلك لبناء نفوس القوم على العقيدة الصافية المشرقة من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً

(١) علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم ، أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد ص٢٨٧ مكتبة الإيمان ـ ط الأولى ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م .

(٢) ينظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشي ١ / ١٨٨ ، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي ١ / ١٦١ وما بعدها ، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطي١ / ٦٩ .

﴿ أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩ ﴾ (الأنعام ١٩) ثم أخذت آيات السورة تقيم الحجج العقلية من خلال الآيات الكونية على تلك الوحدانية لله عز وجل ، وذلك من قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ... ﴾إلى قوله: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ ﴾(الأنعام من ٩٥ : ١٠٣). [١]

٢ـ محاربة العقائد الفاسدة :

كتلك التى توارثها أهل مكة ومن حولهم من القرى من عبادة الأصنام والتقرب إليها بالقرابين ، والتضرع إليها عند اشتداد النوائب ونزول المحن كما فى قوله:﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ (النجم ٢٣) . [٢]

٣ـ العناية بأخبار الأنبياء والأمم السابقة :

وبيان سنة الله تعالى فى هلاك المكذبين لما جاء به رسولهم ، ولقد كثر مجيء تلك الأخبار فى القرآن المكي تسلية للنبي ـ ﷺ ـ مما يجده من تكذيب قومه ، ومن جانب آخر لو تأخر إيراد هذه القصص إلى ما بعد الهجرة لقال كفار قريش : إنما تعلمه محمد ـ ﷺ ـ من أهل الكتاب المقيمين بالمدينة . [٣]

---

(١) ينظر : مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص٦٣ ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، ط الثالثة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .

(٢) ينظر : المدخل لدراسة القرآن الكريم ، محمد أبو شهبة ص٢٣٠ ، مكتبة السّنة ـ القاهرة ـ ط الثانية ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م .

(٣) ينظر : الموسوعة القرآنية المتخصصة ص٥٩١ لمجموعة من الأساتذة المتخصصين .

ومن السور المكية التى اشتملت على قصص الأنبياء بشكل واضح : سورة الشعراء ، والنمل ، والقصص ، والعنكبوت ، توفية لهذا الشأن .

٤ـ إثبات أمر البعث والجزاء وذكر القيامة والدار الآخرة :

حيث عرض القرآن فى العهد المكي عقيدة البعث بعد الموت ، وما يسبقها من أحداث عظام ، ويتجلى ذلك جيدًا فى سورة التكوير حيث يقول سبحانه : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ ... ﴾ ، إلى قوله ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ ﴾ (التكوير من ١ : ١٤) ، ثم قال فى سورة أخرى : ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ ﴾ (الانفطار٤: ٥) وذلك إنما يكون يوم القيامة ووزن الأعمال المفضى إلى آخرة كل من المؤمن والكافر : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾ (القارعة ٦ : ١١) . (١)

تلك هي أهم المبادئ والأسس التى تناولتها السور المكية ، وربما كانت السورة الطويلة منها مشتملة على أكثر من قضية من هذه القضايا ، وهي بعدُ نتاج فكر الإمام الشاطبي ، الذى سار لاحقوه على طريقه اللاحب الموطأ بعد أن أنعموا النظر فى كتاب الله عز وجل ، وبان لهم صدقُ ما قاله الإمام فى هذا الشأن .

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . مصر . ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(١) ينظر : التفسير البياني للقرآن الكريم . بنت الشاطئ . ١ / ٧٩ ، دار المعارف . القاهرة . ط السابعة .

ثم بعد بيان الأغراض التى قررها الشيخ فى السور المكية ، يقول ـ رضى الله عنه ـ :

فإذا تقرر هذا وعدنا إلى النظر فى سورة (المؤمنون) وجدنا فيها المعاني الثلاثة ـ يعني : تقرير الوحدانية ، وتقرير النبوة له عليه الصلاة والسلام ، وإثبات البعث والدار الآخرة ـ على أوضح الوجوه . (١)

ومرجع هذه الوجوه الثلاثة هو قضية الإيمان وفلاح من اتصف به ، ومن ثم تجد السورة قد افتتحت بقوله تعالى : " قد أفلح المؤمنون " وختمت بقوله: " إنه لا يفلح الكافرون " وشتان ما بين الفاتحة والخاتمة . (٢)

وهذا عين ما ذهب إليه الإمام البقاعي فى نظم الدرر حين قال عن مقصود السورة : " ومقصودها اختصاص المؤمنين بالفلاح وتسميتها واضح الدلالة على ذلك " . (٣)

ثم يتابع الشيخ قائلًا :

" إلاَ أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة التى هي المدخل للمعنيين الباقيين ، وإنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ترفعًا منهم أن يُرسل إليهم من هو مثلهم ، أو ينال هذه الرتبة غيرهم إن كانت ، فجاءت السورة تبين وصف البشرية وما تنازعوا فيه منها ، وبأيّ وجهٍ تكون على أكمل وجوهها حتى تستحق الاصطفاء والاجتباء من الله تعالى ، فافتتحت السورة بثلاث جمل " . (٤)

ولا يخفي على أولى النهى أن المراد بالجمل ـ فى كلام الشيخ ـ معاقد الكلام

---

(١) الموافقات ٤ / ٢٧٠ بتصرف .

(٢) ينظر : الكشاف للزمخشري ٣ / ٢٠٧ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط الثالثة ١٤٠٧هـ .

(٣) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ١٣ / ١٠٥ ـ دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة .

(٤) الموافقات ٤ / ٢٧٠ .

وليس الجمل النحوية .

وقبل البدء فى بيان المباحث التى هي نتاج كلام الشيخ عن السورة .

يجدر بنا أن نضع بين يدي القارئ الكريم نصَّ كلام الشيخ عن السورة كاملاً حتى يكون على علم بما قاله فى هذا الشأن .

يقول ـ رضى الله عنه ـ :

" وسورة المؤمنون نازلة فى قضية واحدة ، وإن اشتملت على معانٍ كثيرة ، فإنها من المكيات وغالب المكي أنه مقررٌ لثلاثة معانٍ ، أصلها معنى واحد ، وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى :

الأول : تقرير الوحدانية لله الواحد الحق ، غير أنه يأتي على وجوه كنفي الشريك بإطلاق ، أو نفيه بقيد ما ادّعاه الكفار فى وقائع مختلفةٍ ، من كونه مقربا إلى الله زلفى ، أو كونه ولدًا أو غير ذلك من أنواع الدعاوى الفاسدة .

والثاني : تقرير النبوة للنبي محمد ـ ﷺ ـ وأنه رسول الله إليهم جميعا صادق فيما جاء به من عند الله ، إلاّ أنه وارد على وجوه أيضًا ، كإثبات كونه رسولاً حقا ، ونفى ما ادّعوه عليه من أنه كاذب أو ساحر أو مجنون ، أو يعلمه بشر ، أو ما أشبه ذلك من كفرهم وعنادهم .

والثالث : إثبات أمر البعث والدار الآخرة وأنه حق لا ريب فيه بالأدلة الواضحة ، والردّ على من أنكر ذلك بكل وجه يمكن الكافر إنكاره به فرد بكل وجه يلزم الحجة ، ويبكت الخصم ويوضح الأمر .

فهذه المعاني الثلاثة هي التى اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة فى عامة الأمر ، وما ظهر منها ببادئ الرأي خروجه عنها فراجع إليها فى محصول الأمر ، ويتبع ذلك الترغيب والترهيب ، والأمثال والقصص ، وذكر الجنة والنار ، ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك .

فإذا تقرر هذا وعدنا إلى النظر فى سورة " المؤمنون " مثلاً وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه ، إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة التى هي المدخل للمعنيين الباقيين ، وإنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية؛ ترفعاً منهم أن يرسل إليهم من هو مثلهم ، أو ينال هذه الرتبة غيرهم إن كانت ، فجاءت السورة تبين وصف البشرية وما تنازعوا فيه منها ، وبأي وجه تكون على أكمل وجوهها حتى تستحق الاصطفاء والاجتباء من الله تعالى ؛ فافتتحت السورة بثلاث جمل :

الأولى : وهي الآكد فى المقام : بيان الأوصاف المكتسبة للعبد التى إذا اتصف بها رفعه الله وأكرمه ، وذلك قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ... ﴾ (المؤمنون ١ : ١١) .

والثانية : بيان أصل التكوين للإنسان وتطويره الذى حصل له جاريًا على مجارى الاعتبار والاختيار ، بحيث لا يجد الطاعن إلى الطعن على مَنْ هذا حاله سبيلا .

والثالثة : بيان وجوه الإمداد له من خارج بما يليق به فى التربية والرفق والإعانة على إقامة الحياة ، وأن ذلك له بتسخير السموات والأرض وما بينهما ، وكفى بهذا تشريفًا وتكريما .

ثم ذكرت قصص من تقدم مع أنبيائهم واستهزاءهم بهم بأمور منها كونهم من البشر ؛ ففي قصة نوح مع قومه قولهم : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ (المؤمنون ٢٤) .

ثم أجمل ذكر قوم آخرين أرسل فيهم رسولاً منهم ، أي : من البشر لا من الملائكة فقالوا : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ﴾ (المؤمنون ٣٣) ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾(المؤمنون ٣٤) ، ثم قالوا : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (المؤمنون ٣٨) أي : هو من البشر ، ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ (المؤمنون ٤٤) فقوله : (رسولها) مشيرًا إلى أن المراد رسولها الذى تعرفه منها .

ثم ذكر موسى وهارون وردَّ فرعون وملائه بقولهم : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ (المؤمنون ٤٧) ... إلخ .

هذا كله حكاية عن الكفار الذين غضوا من رتبة النبوة بوصف البشرية تسلية لمحمد . عليه الصلاة والسلام . ثم بين أن وصف البشرية للأنبياء لا غض فيه ، وأن جميع الرسل إنما كانوا من البشر ، يأكلون ويشربون كجميع الناس ، والاختصاص أمرٌ آخر من الله تعالى ، فقال بعد تقرير رسالة موسى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ (المؤمنون ٥٠) ،

وكانا مع ذلك يأكلان ويشربان ، ثم قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ (المؤمنون ٥١) ، أي : هذا من نعم الله عليكم ، والعمل الصالح شكر تلك النعم ومشرف للعامل به ، فهو الذى يوجب التخصيص لا الأعمال السيئة ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (المؤمنون ٥٢) إشارة إلى التماثل بينهم ، وأنهم جميعاً مصطفون من البشر ، ثم ختم هذا المعنى بنحو مما بدأ به فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾

(المؤمنون ٥٧ . ٦١) .

وإذا تُؤمِّل هذا النمط من أول السورة إلى هنا فهم أن ما ذكر من المعنى هو المقصود ، مضافًا إلى المعنى الآخر ، وهو أنهم إنما قالوا ذلك وغضوا من الرسل بوصف البشرية ؛ استكبارًا من أشرافهم ، وعتوًا على الله ورسوله ، فإن الجملة الأولى من أول السورة تشعر بخلاف الاستكبار وهو التعبد لله بتلك الوجوه المذكورة ، والجملة الثانية مؤذنة بأن الإنسان منقول فى أطوار العدم وغاية الضعف ، فإن التارات السبع أتت عليه وهي كلها ضعف إلى ضعف ، وأصله العدم ؛ فلا يليق بمن هذه صفته الاستكبار ، والجملة الثالثة مشعرة بالاحتياج إلى تلك الأشياء والافتقار إليها ، ولولا خَلْقُها لم يكن للإنسان بقاء بحكم العادة الجارية ، فلا يليق بالفقير الاستكبار على من هو مثله فى النشأة والخلق ، فهذا كله كالتنكيت عليهم ، والله أعلم .

ثم ذكر القصص فى قوم نوح : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ (المؤمنون ٢٤) ، والملأ هم الأشراف ، وكذلك فيمن بعدهم : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ ﴾ (المؤمنون ٣٣) ، وفى قصة موسى : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ (المؤمنون ٤٧).

ومثل هذا الوصف يدل على أنهم لشرفهم فى قومهم قالوا هذا الكلام ثم قوله : ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (المؤمنون ٥٤ . ٥٦) رجوع إلى وصف أشرف قريش ، وأنهم إنما تشرفوا بالمال والبنين ، فردّ عليهم بأن الذى يجب له الشرف من كان على هذا الوصف ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ ﴾ (المؤمنون ٥٧) .

ثم رجعت الآيات إلى وصفهم فى ترفهم وحال مآلهم ، وذكر النعم عليهم والبراهين على صحة النبوة ، وأنَّ ما قال عن الله حق من إثبات الوحدانية ، ونفي الشريك وأمور الدار الآخرة للمطيعين والعاصين ، حسبما اقتضاه الحال والوصف للفريقين .

فهذا النظر إذا اعتبر كليّا فى السورة وجُد على أتمَّ من هذا الوصف لكن على منهاجه وطريقه ، ومن أراد الاختبار فى سائر سور القرآن فالباب مفتوح والتوفيق بيد الله ، فسورة المؤمنون قصة واحدة في شيء واحد .

وبالجملة : فحيث ذكر قصص الأنبياء . عليهم السلام . كنوحٍ ، وهودٍ وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، فإنما ذلك تسلية لمحمدٍ ﷺ . وتثبيت لفؤاده لما كان يلقي من عنادِ الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة ، فتذكر القصة على النحو الذى يقع له مثله ، وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال ، والجميع حق لا إشكال فى صحته ، وعلى حذو ما تقدم من الأمثلة ، يحتذى فى النظر فى القرآن لمن أراد فهم القرآن ، والله المستعان " . (١)

تلك هي المقاطع التى ذكرها الشيخ عن مقصود السورة ، وبمراجعة النظر فيها تقودنا إلى عدة مباحث ، وقد اخترت من نص كلام الإمام عن نظرته الكلية لسورة المؤمنون عناوين المباحث الآتية :

(١) الموافقات ٤ / ٢٦٩ : ٢٧٤ .

المبحث الثاني

بيان الأوصاف المكتسبة للعبد

التى إذا اتصف بها رفعه الله وأكرمه [١] ، وذلك قوله تعالى : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ (المؤمنون ١ : ١١) .

ومن يتأمل مطلع هذه الآيات (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) يتبين له أن مناسبة هذا المطلع لمقصود السورة واضح جدًا ، وكأنه الجذر الذي تفرعت عنه باقي معاقد السورة .

حيث افتتحت السورة بالصفة التى تستدعي (الفلاح) . ولا فلاح من دونها . ألا وهي صفة الإيمان ، ولعلك على ذكر من أن كل ما عداها من الصفات إنما هو تبع لها ، فإن لم يكن ثمة إيمان فلا فلاح في شيء أبدًا . [٢]

---

(١) عنوان هذا المبحث مأخوذ من قول الشيخ: " فافتتحت السورة بثلاث جمل إحداها وهي الأكد في المقام : بيان الأوصاف المكتسبة للعبد التي إذا اتصف بها رفعه الله وأكرمه وذلك قوله : (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) إلي قوله : (هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ) "١: ١١،الموافقات ٤/٢٧١.

(٢) لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل . فاضل صالح السامرائي . ص١٢٩ بتصرف ، دار عمار للنشر والتوزيع . الأردن . عمان . ط الثالثة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م .

وهذا افتتاح بديع ؛ لأنه من جوامع الكلم ، فإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله ، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلق هذا الفلاح ، وبأي شئ يكون ، يقتضي تعميم ما به هذا الفلاح المطلوب ، فكأنه قيل : قد أفلح المؤمنون فى كل ما رغبوا فيه من خيري الدنيا والآخرة . (١)

ولا يخفى أن قوله : (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) جاء مجملاً تلك الصفات المكتسبة لمن استحقوا صفة الفلاح والنجاح ، مشوقًا لمعرفتها ، ثم جاء قوله : (ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ... إلخ الآيات) بيانًا وتفصيلاً لهذه الصفات التى وُسم بها هؤلاء المؤمنون .

والناظر إلى هذا الجزء من السورة يبين له أنه وسم أهل الفلاح بسبع صفاتٍ تبدأ بوصف الإيمان (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) وتنتهي بالمحافظة على الصلاة (وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ) ، وقد جمعت هذه الصفات بشكل بديع بين العقيدة والعبادة والأخلاق ، حيث بدأت بذكر الإيمان وهو أهم ركائز العقيدة ، وحجر الأساس الذى يُبنى عليه ما سواه ، ثم تعاقب ذكر الطاعات ما بين العبادات والأخلاق الفاضلة ، فالصلاة والزكاة من العبادات التى بُني عليها الإسلام ، والإعراض عن اللغو وحفظ الفروج وأداء الأمانات ورعاية العهود من جميل الأخلاق الحسنة ، وهذا التداخل والترابط بين جوانب العقيدة والعبادة والأخلاق إنما هو لإظهار آثار تلك العقائد والعبادات على السلوك الإنساني ، بشرط تحققها بالتوازن المطلوب بين العبادة والسلوك ، فلا ينبغي الاهتمام بأحدهما دون الآخر ، بل لابد

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٨ / ٨ بتصرف ، الدار التونسية للنشر . تونس ١٩٨٤م .

من الجمع بين العبادة والأخلاق الحسنة . [١]

ومن يُراجع النظر فى هذا الجزء من السورة يجد أنَّ النظم الكريم ركزّ على أمر الصلاة وأهميتها وما يترتب عليها ، حيث بدأها الحق بقوله : (ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ) ثم ختم صفات المؤمنين بقوله : (وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ) ؛ وما ذاك إلاّ لأنها رأس العبادات الشرعية ، حيث تتكرر فى اليوم والليلة خمس مرات ، بخلاف الصوم والزكاة والحج ، ومن ثَمَّ فإن العبد موصول بها فى جميع أوقاته ، ومن هنا جاءت الإضافة التى توحي بشدة تعلق المؤمنين بها فقيل : (فى صلاتهم) و (على صلواتهم) وكأنها أصبحت جزءًا منهم لا ينفكون عنها ولا تنفك عنهم ، بل وكأنها أصبحت كالجزء الحسي من جسد المؤمن الذى أمر بالمحافظة عليه ، وعدم الخوض به فى لجج الهوى ، ذالكم الجزء الذى جاء تاليًا لأمر الصلاة ـ بعد أكثر من آية . ففيل : (وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ) فكما قال هنا: (لفروجهم) بالإضافة إليهم ، قال سابقا : (فى صلاتهم) و(على صلواتهم) بالإضافة نفسها ، وكأن هذه قرينة تلك .

وراجع البصر فى شأن الخشوع فى الصلاة ، وما يستلزمه هذا الوصف (خاشعون) من دوام الخضوع والتذلل والاستشعار بمناجاة الحق سبحانه ، ومن ثَمَّ الخوف والرهبة منه جلَّ فى علاه ، ثم ارجع البصر مرتين فيما تلا أمر الصلاة تجده إعراضًا عن اللغو ، وتأدية للزكاة وحفظًا للفروج ، ورعاية للأمانة والعهود ، وكأنَّ الخشوع فى الصلاة وتأديتها على الوجه الذى أمر به الحق سبحانه ، ينضح على أعضاء المؤمن بما يدعوه إلى الطاعة والاستقامة ، وعدم اتباع النفس هواها ، ومن ثم تتابع ذكر الطاعات فى لاحق الآيات فقيل : (وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي ٢٣ / ٢٥٩ : ٢٦٣ .

مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ ... وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨) .

ومن هنا ترى أن الوصف بالخشوع فى الصلاة جاء بالاسم (خاشعون) فقيل : (ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ) دون (يخشعون) وذلك لدلالة على أنه وصف دائم لهم فى صلاتهم غير منفكين عنه ، لأنه روح الصلاة وبدونه تصير ميتة لا روح فيها ، وينعدم الأثر المرتب عليه بفقدانه فلا تنهي عن الفحشاء ولا تصدّ عن المنكر ، وأما إذا قيل : (فى صلاتهم يخشعون) صح الوصف حتى وإن حصل الخشوع لحظة وفتر أخرى وهذا غير مراد ، ومن ثم كان الوصف بـ (خاشعون) الدال على الثبوت والدوام أبلغ فى المراد وأتمَّ للمعنى المستفاد . [١]

ومن الملاحظ فى أمر الصلاة أنها جاءت مع الخشوع بصيغة الإفراد فقيل: (ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ) ، وفى شأن المحافظة عليها جاءت بصيغة الجمع فقيل : (وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ) وما ذاك إلا ليدل بصيغة الإفراد (صلاتهم) على أن الخشوع مطلوب فى جنس الصلاة ، أي فى أيِّ صلاة كانت ، فرضًا أو نفلا ، وجمعت آخرًا لبيان المحافظة على أعدادها من صلوات اليوم والليلة والجمعة والعيدين ، والجنازة والتهجد والضحى وغيرها من النوافل . [٢]

فإن قيل : لِمَ جاءت المحافظة على الصلاة بالفعل دون الاسم فقيل : (وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ) قيل : لأن أمر الصلاة متجدد وحادث وقتاً بعد آخر ويومًا بعد يوم ، ومن هنا ناسبه الإتيان بالفعل (يحافظون) الدال على التجدد والحدوث ، أي : يحافظون على أوقاتها فلا يخرجونها عن وقتها ، ويحافظون على

(١) ينظر : لمسات بيانية ١٣٢ .

(٢) ينظر : الكشاف للزمخشري ٣ / ١٧٧ .

القيام بأركانها من طمأنينة واعتدال حتى يكون ذلك دأب المصلى فى كل وقت من أوقاتها المحددة شرعًا ، وكأن أمر الخشوع المتقدم يختص بباطن الصلاة وجوهرها ، وأمر المحافظة عليها يختص بشكلها وظاهرها . (١)

وانظر إلى براعة التناسب بين البدء بروح الصلاة وهو الخشوع ، وبين جو السورة المشحون بشقي الخشوع ـ خشوع القلب وخشوع الجوارح ـ حيث تكررّ فى السورة الدعوة إلى التقوى ، والتقوى أمر قلبي ، وهي من لوازم الخشوع ، وذلك فى قوله : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (المؤمنون ٢٣) وقوله : ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (المؤمنون ٣٢) ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (المؤمنون ٥٢) وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (المؤمنون ٥٧) ، والخشية والإشفاق أمر قلبي وهما من لوازم الخشوع ، وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون ٦٠) ، والوجل أمر قلبي وهو من لوازم الخشوع ، وترى النظم الكريم بعد ذلك ذكر الكفار وذمهم ، يقول : (بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ) أي غفلة ، وهذه الغفلة تمنع قلوبهم من الخشوع والخضوع والإعراض عما سوى الله تعالى ، وقال : ﴿ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (المؤمنون ٧٦) ،

إذاً فلم يخشعوا ؛ لأن الخاشع مستكين لربه متضرع متذلل إليه ، وقال : ﴿

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي ٢٣ / ٢٦٣ .

فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴾ (المؤمنون ٤٦) ، والاستكبار والعلو مناقضان للخشوع ، إذ الخشوع تذلل وخضوع وانكسار لله ربَّ العالمين ، وعليه فالبدء بالخشوع مناسب لما تناثر فى السورة من الوصف به أو الدعوة إليه ، أو النعي على عدم التلبس به . (١)

ولَمّا ذكر الله تعالى الحالات التعبدية السبعة التى بها خلاص المكلفين وفوزهم بأمر الدنيا والدين ، بَيَّن نتيجة ذلك وما ينتظرهم من الثواب فقال : (أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١) . (٢)

فجاء بضمير الفصل (هم) والتعريف فى الخبر (الوارثون) للدلالة على القصر أي : أولئك الجامعون لهذه الأوصاف (هم الوارثون) الأحِقاء بأن يسموا وُراثًا دون من عداهم ، ثم فسر هذا الإبهام الذى فى (الوارثون) وبيّن حقيقة إرثهم فقال : (ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١) ففي هذا الإيضاح بعد الإبهام فخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر . (٣)

وهذه الصفات السبع التى صدرت بها السورة تشعر بخلاف الاستكبار وهو التعبد لله بتلك الوجوه المذكورة ، ثم جاءت الجملة الثانية . كما يسميها الإمام الشاطبي . لتحكي لنا الأطوار السبعة التى يمرُّ بها الإنسان ، وهو ينتقل فى أطوار العدم وغاية الضعف ، ومن ثم فلا يليق بمن هذه صفته أن يستكبر على أمر الله حين يدعوه إلى ما فيه الهدى والنجاة ، ثم إن هذا الضعف الذى ألمَّ بالإنسان فى

(١) لمسات بيانية ١٢٩ : ١٣١ بتصرف .

(٢) ينظر : ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي ٢ / ٤٦٤ : ٤٦٥ تح / عبدالغني محمد علي الفاسي . دار الكتب العلمية . بيروت ، لبنان .

(٣) الكشاف ٣ / ١٧٧ . ١٧٨ بتصرف .

أطوار العدم ، لم يكن قاصرًا على بداية نشأته وتقلبه فى تلك الأطوار ، بل امتدَّ معه حتى بعد بروزه إلى هذا الوجود ، ليجد نفسه مفتقرًا ـ فى بقائه حيًا ـ إلى أشياء قد خلقها الله له قبل استضافته على هذا الوجود ليكون خليفة الله فى أرضه ، فأنَّى لمن كان الضعف قرينه فى نشأته والاحتياج صنوه فى عيشته ، أن يتكبر على داعي الله وتصديق رسالته ، وهذه الأطوار السبعة التى يتنقل فيها الإنسان ليبرُز إلى الوجود ، وما يحتاجه فى هذا الوجود لضمان بقائه فيه ، تأخذ بيد المتأمل إلى :

المبحث الثالث

وهو : أصل تكوين الإنسان واحتياجه إلى ما خلق الله [١]

وفيه يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (المؤمنون ١٢ : ٢٢) .

---

(١) عنوان هذا المبحث مأخوذ من قول الشيخ : " والثانية : بيان أصل التكوين للإنسان وتطويره الذي حصل له جاريًا على مجاري الاعتبار والاختيار ... والثالثة : بيان وجوه الإمداد له من خارجٍ بما يليق به في التربية والرفق والإعانة على إقامة الحياة، وأن ذلك بتسخير السموات والأرض وما بينهما " الموافقات ٤/ ٢٧١ .

وأول ما يلفت النظر فى هذا المقطع هو ابتداؤه بواو العطف فى قوله : (وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ ...) والعطف هنا مناسب لما انتهى به المقطع الأول ؛ حيث انتهت الآيات السابقة بقوله : (أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١) ولكون المتصفين بسابق الصفات الجليلة (يرثون الفردوس) يترتب عليه لزومًا أن يكون هناك مَعَاد أخروي ونشأة أخرى بعد الموت يجازى فيها الطائعون ، ويعاقب على سوء صنيعهم العاصون ، ومن ثَمَّ ذَكَّر هنا بالنشأة الأولى والأطوار التى مرت بها ليستدل بها على صحة النشأة الآخرة . [١]

فقال : (وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ) فالذى أنشأكم من التراب بشراً سويا ، قادر على أن يعيدكم منه مرة أخرى .

و(الإنسان) هنا مرادٌ به آدم ـ عليه السلام ـ ؛ لأنه هو الذى خُلق من الطين ، ثم أعاد الضمير عليه فى قوله : (جعلناه) مرادًا به ولدُه ومن تناسل منه فقال : (ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ) . [٢]

ومن يتأمل هذه الأطوار السبعة التى يمر بها الإنسان فى حالة النشأة الأولى ، وكيف تبادلت فيها (الفاء) و (ثم) بين أعطاف هذه الأطوار تبادلاً يكشف عن (اللطائف الشريفة ، والمعاني الرائقة التى لا تزداد على طول البحث وكثرة التنقير ، إلا غوصاً على الأسرار) [٣] الخبيئة ، وبحثًا عن الجماليات

(١) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٧ / ٥٥٠ تح / صدقي محمد جبل ـ دار الفكر ، بيروت ١٤٢٠هـ .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي ٣ / ٢٨٨ بتصرف .

(٣) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلويّ ٢ / ٢٥ . المكتبة العنصرية ـ بيروت ، ط الأولى ١٤٢٣هـ .

المستترة وراء ألفاظ هذا النظم الكريم = يرى أنّ العطف بـ(ثم) جاء بين طور الخلق من الطين ، وجعله نطفة فى قرار مكين ، كذلك بين النطفة وخلقها علقة ، ثم استهل النظم مرحلة خلق العلقة مضعة بالفاء (فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً) كذلك تابع النظم خلق المضعة عظامًا بالفاء نفسها (فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا) والأمر ذاته مع كسوة العظام لحمًا (فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا) ثم جاءت (ثم) فى المرحلة الأخيرة من مرحلة التكوين (ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ) ورست سفينة الفاء فى قوله : (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ).

والناظر إلى هذه الأطوار يَبين له أن طور الخلق من الطين مرحلة مستقلة بذاتها ، وأمر التولد بواسطة النطفة طور آخر للخلق مستقل عن سابقه ، ومن هنا جاءت معه (ثم) لِما بين الطين والنطفة من انفصال بَيِّن ولما صير سبحانه هذا الماء السائل دمًا جامدًا يسمى العلقة كانت (ثم) قرينة هذا التخلّق ؛ لأنه طور منفصل عن سابقه ، إذ هو تحول من حالة إلى أخرى ، إذاً هي أطور مستقلة عن بعضها ... الطين ... الماء ... الدم ، ومن هنا كانت (ثم) الأحق بمرافقة هذه المراحل لما بينها من انفصال وتراخٍ ، ولما انتقل إلى تحول العلقة إلى مضعة والمضغة إلى هيكل من العظام يكسى بعدُ لحمًا عَدَّ النظم هذه الأحوال طورًا واحدًا ، ولذلك دخلت الفاء بين مراحله للدلالة على اتصال بعضها ببعض ؛ لأن الانتقال من العلقة إلى المضغة يشبه تعقيب شئ عن شئ ، إذ اللحم ـ وهو المضغة ـ ناشئ من الدم الجامد ـ وهو العلقة ـ والعظام متكونة من تلك المضغة ، فتلك أحوال متناسلة من بعضها ، ومن ثم فهي قريبة فى تطورها ، وإن كان مكث كل طورٍ منها له مدة زمنية معلومة [١] ، والفاء التى تصدرت هذه الأطوار (فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٨ / ٢٢ : ٢٤ .

ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا) هي فاء التعقيب (والتعقيب فى كل شئ بحسبه) [١] ، وهو هنا يدل على وقوع بعضها إثر بعض ، ولكن بمدد معتادة لا تدخل فى حيز التراخي أو التباطؤ .

ومما يدل على أن العلقة والمضغة والعظام كأنها طور واحد لتناسلها وتولدها من بعض " ما جاء فى سورة غافر فى بيان أطوار خلق الإنسان ، حيث اكتفى بالعلقة عن المضغة والعظام وجعلها طورًا مستقلاً ، ولو كانت كلٌ من المضغة والعظام طوراً قائمًا بذاته لما كانت صالحة للاختزال ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (غافر ٦٧) ، فالتقت هذه الآية مع ما جاء فى سورة المؤمنون من بيان الأطوار الأربعة : السلالة وهي التراب ، والتولد بواسطة النطفة ، ومراحل تكوين الجنين فى بطن الأم وإخراجه طفلا المعبر عنه هناك بالخلق الآخر ، فلم يختزل من الأطوار الرئيسة شيئا ، واختزل من طور تكون الجنين بعض مراحله " . [٢]

وذُيلت أطوار الخلق بالفاء فى قوله : (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ) لبيان سرعة انفعال سامعيها بطلاقة قدرة الله فيها .

---

(١) ألا ترى أنه يقال : تزوج فلان فَوُلد له ، إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل المعتادة وإن كانت متطاولة ، كقوله تعالى : { ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة } (الحج ٦٣) . مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ١/٢١٤ تح / مازن المبارك . دار الفكر . دمشق ، ط السادسة ١٩٨٥م .

(٢) من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم (الفاء وثم) د/ محمد الأمين الخضري ص٢٧٥ . مكتبة وهبة . ط الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

والمتأمل فى هذا المقطع ـ المتحدث فيه عن أطوار الخلق ونهايته ومآل أمره ـ يجده قد انتهى بذكر البعث ، فقال : (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ) ، وكأنَّ البعث الذى هنا يمدّ يده ليصافح البعث الذى ختمت به صفات المؤمنين هناك حين قال : (أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١١) ، إذ من المعلوم أنَّ إرث الفردوس لا يكون إلا بعد البعث والحساب ، وكأنَّ الحق سبحانه يجدد التذكير بأمر البعث فينة بعد فينة ، وساعة بعد أخرى ، حتى لا يغتر هذا المخلوق الضعيف بدنياه ، وبما أولاه الله من النعم ، وينصرف بها عن أخراه التى فيها مقامه ومنتهاه.

وبعد أن انتهى مقطع أطوار الخلق التى يمرُّ بها الإنسان ، بدأ النظم يبين النعم التى أوجدها الحق لهذا المخلوق لتكون معينًا له على إقامة الحياة فقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ۝١٧ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ۝٢٠ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢ ﴾ (المؤمنون ١٧: ٢٢).

وأول ما يلفت النظر إلى هذه النعم أنها فى جملتها سبعة ، متمثلة في خلق السموات بما فيها ، وإنزال الماء من جهتها ، وإسكان جزء منه في الأرض وإنشاء الجنات ، وشجر الزيتون ، والأنعام ، والفلك ، ليعيد إلى العقل جملة ما مضى من هذا العدد ، حيث سبق أن صفات فلاح المؤمنين سبعة ، وأطوار خلق الإنسان سبعة ، وهنا النعم المعينة على إقامة الحياة سبعة ، ولعلَّ لهذا العدد سراً عند الله لا يعلمه إلا من يشاء جلَّ فى علاه .

وانظر إلى قوله : (ولقد خلقنا) التى هنا لترى أنها أخت (ولقد خلقنا) التى هناك ، فهذه جاءت فى أنف الجملة المفتتحة ببيان النعم التى أسبغها الله على هذا الإنسان ، لتكون عونًا له على إقامة الحياة فى الأرض والأخرى وردت فى صدر الجملة التى بين فيها أطوار الخلق ، لتُذكِّر ـ هذه وما وراءها بتلك وما بعدها ـ بأن يد الخالق سبحانه ممتدة بالنعم على هذا المخلوق قبل وجوده وبعده ومن ثَمَّ فاللائق بهذا الإنسان أن يؤمن به سبحانه ، وينقاد لما أراد منه دون تردٍ أو تباطؤ .

والمتأمل فى المقطع المبين أطوار الخلق يرى أن أغلب الحديث فيه عن الإنسان جاء بما يدل على الغيبة كما فى قوله : (ولقد خلقنا الإنسان ... ثم جعلناه ... ثم أنشأناه ...) وهذا يتناسب جداً مع تلك الغيبة التى كان فيها هذا المخلوق داخل القرار المكين الذى هو الرحم .

أما هنا ـ فى مقطع بيان النعم ـ فقد تحول الكلام من الغيبة إلى الخطاب كما فى قوله : (ولقد خلقنا فوقكم ... فأنشأنا لكم ... لكم فيها فواكه ... ومنها تأكلون ... وإن لكم فى الأنعام ... نسقيكم مما فى بطونها) وهذا أيضًا من باب المناسبة البينة ؛ حيث إن هذا المخلوق وما تناسل منه قد برز إلى الوجود ، وأصبح مدركًا ما حوله من السموات وما فيها ، ومن الأرض وما عليها ومن ثم كان حقه أن يوجه إليه الكلام بضمير الخطاب دون الغيبة ، لأنه حاضر مشاهد يرى ويسمع ما يدور حوله .

وكذلك مما يلاحظ على مقطع أطوار الخلق ، ومقطع النعم الذى تلاه أن تعبير الحق سبحانه عن ذاته العلية فيهما جاء بضمير العظمة كما فى قوله : (ولقد خلقنا ... ثم جعلناه ... ثم خلقنا النطفة ... فجعلنا العلقة .. فخلقنا المضغة ... فكسونا العظام ... ثم أنشأناه ... ولقد خلقنا فوقكم ... وما كنا عن الخلق

غافلين ... وأنزلنا من السماء ماء ... فأسكناه فى الأرض ... وإنّا على ذهاب به لقادرون ... فأنشأنا لكم ... إلخ) .

وما ذاك إلا ليدلك فى مراحل أطوار الخلق على طلاقة قدرته ونفاذ إرادته وعظيم مشيئه ، حيث أوجد من العدم وأنشأ من الفراغ بشرًا سويًا يرى ويسمع ويتكلم (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

ثم لينبهك بالنعم التى منحها إياك على سعة جوده ، ووفرة عطائه وسابغ آلائه ؛ حيث ابتدأ ذلك المخلوق الضعيف بالنعم قبل أن يطلب منه التوحيد ، وغمره بالعطاء قبل أن يفرض العبادات على ذى العقل الرشيد ، ليكون كلُّ ذلك باعثًا لهذا الإنسان على أن يصغى إلى نداء الحق سبحانه عندما يأتيه رسول ربه ليدعوه إلى الإيمان به جلَّ فى علاه .

ولما كان من تلك النعم إرسال الرسل التى تدعوا إلى الله عندما ينغمس الإنسان فى ظلمات التيه والضلال ، وكان ختام النعم التى هنا قوله : (وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ) = يُذَكِّر بأول رسولٍ صنع تلك الفلك وهو سيدنا نوح . عليه السلام . جاء :

المبحث الرابع

وعنوانه (تقرير أمر النبوة بذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم) [١]

فذكرّ أولهم فقال :

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا

---

(١) عنوان هذا المبحث مأخوذ من قول الشيخ : " ثم ذكرتْ . يعني الآيات . قصص من تقدم مع أنبيائهم واستهزاءهم بهم بأمور منها كونهم من البشر ... إلي قوله هذا كله حكاية عن الكفار الذين غضوا من رتبة النبوة بوصف البشرية " الموافقات ٤/٢٧١ ، ٢٧٢ .

وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (المؤمنون ٢٣ : ٥٢) .

والمتأمل فى تلك الآيات يرى أنها استهلت بجملة من المؤكدات صدرت فى الحديث عن إرسال نوح ـ عليه السلام ـ وتلك المؤكدات هي (لام التوكيد ـ وقد التى للتحقيق ـ والفعل الماضي) ليثبت للمنكرين من أول الأمر أن إرسال الرسل إنما هو عادة قديمة ، أنعم الله بها على خلقه ، حين يكتنفهم سربال الضلال ، ويفتك بهم اتباع الهوى وسوء الفعال .

وليعلمهم كذلك أنَّ دعوة الرسل إلى قومهم إنما هي دعوة واحدة ، نصَّ عليها القرآن فى كثير من المواضع ، وتراها متفقة حتى فى ألفاظها ، بداية من نوح ـ عليه السلام ـ ومروراً بمن جاء بعده ، وتلك الدعوة هي (ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ) حيث قالها نوح ـ كما هنا ـ وقالها هود بعده : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف ٦٥) ثم نبيُّ الله صالح فى (الأعراف ٧٣) ثم شعيب عليه السلام فى (الأعراف ٨٥) ، وهكذا كانت الدعوة إلى التوحيد هي شعار الرسالات السماوية ، ومن ثم ترى أن نوحًا ـ عليه السلام ـ قال لقومه : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾(الأعراف ٦٢) ، وقالها كذلك هود لقومه فى (الأعراف ٦٨) ، وتلاها كذلك شعيب على مسامع قومه فى قوله : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى... ﴾ (الأعراف ٩٣) ، وإنما قال كل منهم : (رِسَٰلَٰتِ رَبِّى) دون (رسالة ربي) ليُعلم كلُّ رسول قومه أنَّ ما جاء به من عند الله إنما هو امتداد لما جاءت به الرسل السابقون عليه [١] دون أن يكون بينه وبينهم شئ من التناقض أو المغايرة فى أصل الدعوة .

وإذا كانت دعوة الرسل إلى قومهم واحدة ، فإنّ استقبال الأمم دعوة أنبيائهم بالتكذيب والإعراض كذلك كانت واحدة ، تمتد جذورها إلى قوم نوح ـ عليه السلام ـ وإنَّ أول من يصدّ عن داع الحق ويعرض عن الرسول الصدق هم السادة الأشراف ، وأهل النفوذ والسلطان من تلك الأمم ، ومن ثم ترى ذكر هؤلاء السادة متصدراً مواطن التكذيب مع كل رسول ، وحجتهم فى ذلك ادّعاء البشرية ، وما يترتب عليها من المماثلة لهم فى المأكل والمشرب وشؤون الحياة ، ومن ثَمَّ جاء فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ : (فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ...) ثم جاءت هذه العلة ذاتها فيما تلا قوم نوحٍ ممن أخبر الحق عنهم وطوى ذكر رسولهم ، حيث يقول سبحانه عنهم : (وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ

(١) وإنما قال نوح ـ عليه السلام ـ : (رسالات ربي) باعتبار ما أوحي إليه وإلى مَنْ قبله ، وهي صحف إدريس ـ عليه السلام ـ وكانت ثلاثين صحيفة ، وصحف شيت وكانت خمسين صحيفة . ينظر : البحر المحيط ٥ / ٨٣ .

كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾) ، ثم يمضي سياق الآيات فى استعراض القرون التالية فيقول : (ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ) . هكذا فى إجمال بديع يلخص تاريخ الدعوة ، ويقرر سنة الله الجارية فى الأمد الطويل بين نوحٍ فى أول السلسلة وبين موسى وعيسى فى أواخرها ، حيث إنَّ كل قرن من تلك القرون يستوفى أجله ويمضي (مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ) وكان من شأنهم وعادتهم التكذيب والإعراض (كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ) وكانت سنة الله فى هذا التكذيب هي الإهلاك (فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا) أي : فى الإهلاك الناشئ عن مباشرة السبب المتحد وهو التكذيب الرسول الذى دعاهم إلى الله وحده ... ومن ثم لم يبق منهم إلاّ حكايات يعتبر بها المعتبرون ، ولذلك قال : (وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ) يتناقلها أهل القرون فيما بينهم ، ولما تحقق فيهم الإهلاك ترتب عليه الطرد والإبعاد فقال : (فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ) أي : عن رحمة الله ونعيمه الذى أصاب من آمن وصدق رسالات الله الوافدة إليه . [1]

ثم يمتد حبل الإعراض والتولي من الملأ من قوم نوح ، ليصل إلى فرعون وملائه من بني إسرائيل فى تكذيبهم موسى وهارون . عليهما السلام . وتبقى حجة الإعراض واحدة ، وهي بشرية الرسولين ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : (ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا

(١) ينظر : تفسير أبي السعود ٦ / ١٣٥ . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾) ويزيد الملأ من بني إسرائيل على ادّعاء البشرية علة أخرى فى عدم الإيمان هي (وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ) فأنّى يكون منا إيمان بهما ، وتصديق لما جاءا به (فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ) وتلك (سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا) (الأحزاب ٦٢) .

وانظر إلى علة الرفض وعدم استجابة الملأ ومنْ تبعهم لدعوة منْ أُرسل إليهم ، وكيف حصروا تلك العلة فى بشرية الرسل ، وكأنهم بهذا يتمسكون بجذور المعصية الأولى التى غرس حباتها . فى أرض الكبر والاستعلاء . جدُّهم الأكبر إبليس اللعين ، حيث قال عندما أمر بالسجود لآدم : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الحجر ٣٣) فكان عقابه الطرد والإبعاد من رحمة الله ، كما فُعل بهؤلاء (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) . [1]

وكل ما ورد عن الكفار الذين غضوا من رتبة النبوة بوصف البشرية إنما هو تسلية للنبي . ﷺ . عما يلاقيه من قومه الذين جابهوا دعوته بالتكذيب ، ورموه بالسحر وبالكهانة ، ثم هو بعدُ تثبيت لنفسه . عليه الصلاة والسلام . بأن نصر الله قادم لا محالة ، ثم بين النظم أن وصف البشرية للأنبياء لا غضَّ فيه وأن جميع الرسل إنما كانوا من البشر يأكلون ويشربون ، أما الاختصاص بالرسالة فهذا أمر آخر من الحق سبحانه ومن ثمَّ قال بعد تقرير رسالة موسى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ

(١) ينظر : علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم ص٢٨٩ .

وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ (المؤمنون ٥٠) ومع ذلك كان يأكلان ويشربان . [١] وعلة ذكر عيسى هنا ـ خاصة ـ أنَّ بني إسرائيل اتخذوا عيسى ـ عليه السلام ـ إلهًا وهو من البشر ، حيث حملت به أمه وولدته كما يولد البشر ، وكان يأكل ويشرب مثل بني إسرائيل ، وتلك رتبة لا تصح للألوهية أصلاً ، فكأنه يقول لهم : كيف ترفضون أن تسمو البشرية إلى مرتبة النبوة وترضونها ـ فى الوقت ذاته ـ لمرتبة الألوهية ؟ فهذا لعمري فى القياس عجيب . [٢]

ولما كانت البشرية لا تنافي الرسالة قال سبحانه : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا) (المؤمنون ٥١) ، تبكيتاً للمكذبين ، وإعلامًا لهم بأن ما تذرعوا به من بشرية الرسل مقدمة لا تستلزم التكذيب ؛ لأن الرسل ـ أصلاً ـ لم يَدَّعوا غير ذلك ، ولم يُثبت لهم الحق سوى البشرية ، وعطف سبحانه العمل الصالح على الأكل من الطيبات للدلالة على أنَّ أكل الحلال الطيب عون للمرء على الطاعة ـ سرًا وجهرًا ـ ثم بين الحق لهؤلاء الرسل أنهم جميعاً على دين واحد لا يتعدد فيه المعبود فقال : (وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢) وفى ذلك إشارة إلى التماثل فيما بينهم ، وأنهم جميعاً مصطفون من البشر ، فلا ألوهية إلاَّ له سبحانه ، ولا عبودية إلا لوجهه الكريم ، [٣] ولما أنهى النظم الكريم تقرير أمر النبوة ، وأنَّ كون الرسل من البشر أمر لا عجب فيه ولا غبار عليه = بيّن بعد ذلك حال قريش بعد مجيء الرسول إليهم ، ومن هنا جاء :

---

(١) الموافقات للشاطبي ٤ / ٢٧٢ بتصرف .

(٢) ينظر : نظم الدرر للبقاعي ١٣ / ١٤٨ .

(٣) ينظر : الموافقات ٤ / ٢٧٢ .

المبحث الخامس

(رفض قريش دعوة الرسول وذكر النعم عليهم وحال مآلهم) [١]

وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَالٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

---

(١) عنوان هذا المبحث مأخوذ من قول الشيخ عن قريش . بعد الحديث عن تصدر الملأ في كل زمان لإنكار دعوة نبيهم . : " ثم رجعت الآيات إلي وصفهم في ترفهم وحال مآلهم وذكر النعم عليهم ، والبراهين على صحة النبوة " ، الموافقات ٢٧٣/٤

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَاطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (المؤمنون ٥٣ : ٩٨) .

وراجع قوله : (فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ) لترى أن هذا التركيب لم يقع فى غير هذه السورة من القرآن الكريم ، ولعلَّ السرّ فى وضعه عقب قصص الأنبياء

هو الدلالة على أن دين الرسل دين واحد يدعو إلى عبادة الله سبحانه ، ولكنَّ قبول الناس لهذا الدين كان مختلفًا ، فإذا بأكثرهم . بعد أنبيائهم . أحزابٌ وجماعات متنازعة ، لا تسلك طريقًا واحدًا ، ولا تلتقي على منهج واحد .

وتركيب الآية فى مجمله صورة حية لأهل الكفر فى كلِّ زمان ومكان حين يختلفون فى شأن داعي الهدى والرشاد ، وكأنهم بهذا يمزقون أديم الرسالة بإنكارها وتكذيبها مرة ، وبالطعن فى قائلها أخرى ، وبتسفيه السالكين طريقها مرة ثالثة ، إلى آخر هذه الطعون التى يفرح بها كل فريق قام بأمر منها (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) . [١]

ولما كانت قريش على منوال من سبقهم من التكذيب ، خاطب رسوله فى شأنهم بقوله : (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ) وهذا وعيد لهم حيث تقطعوا فى أمر النبي . ﷺ . فقائل هو شاعر ، وقائل ساحر ، ومنهم من يقول به جنة [٢] ، وحقيقة الغمرة : الماء الكثير الذى يغمر من دخله ويغطيه [٣] والمراد بها هنا : غفلة هؤلاء وإنهماكهم فى الباطل ، ومن هنا أضاف النظم الغمرة إليهم فقال : (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ) دون أن يقول : فذرهم فى غمرة حتى حين ، وما ذاك إلا ليقرر أنهم ملازمون لهذا الصد والإعراض ، لا ينفكون عنه ولا يخرجون منه ، ملازمة غمر الماء للغريق من كل جانب ، وفى هذا دليل على انغماسهم فى الباطل إلى أقصى درجة ممكنة .

---

(١) ينظر : وظيفة الصورة الفنية فى القرآن . عبد السلام أحمد الراغب ص٣٠٨ . فصلت للدراسات والترجمة . حلب ، ط الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

(٢) ينظر : البحر المحيط ٧ / ٥٦٧ .

(٣) لسان العرب لابن منظور ٥ / ٢٩ . دار صادر ، بيروت . ط الثالثة ١٤١٤هـ .

وقوله : (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ) من التعبيرات التى لم ترد فى غير هذه السورة ، ولعلَّ السر فى وضعها هنا ؛ ليبين النظم الكريم مدى التقابل بين صورة الحذر واليقظة التى تكتنف النفس المؤمنة ، وبين صورة الغفلة والحيرة والضلالة التى تغمر النفس الكافرة .

وكان من غمرة هؤلاء وغفلتهم أنهم ظنّوا أنَّ ما هم فيه من متاع الدنيا ونعيمها إنما لرضاه جلَّ فى علاه عن حالهم ، فأعلمهم ـ سبحانه ـ أن الأمر بخلاف ذلك فقال : (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦) .

ليعلموا أن تلك النعم إنما هي استدراج لهم فى المعاصي زيادةً لهم فى الإثم ؛ ليكون لزوم الحجة عليهم أقوى إذا ما أعرضوا عن داعي الهدى والرشاد ، الذى جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور . (١)

ولما بين سبحانه جانب الغفلة والغمرة فى تلك القلوب الضالة ، بين جانب اليقظة والحذر فى القلوب المؤمنة فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾ (المؤمنون ٥٧ : ٦١) .

وكأنه بهذا يردّ على كفار قريش الذين حسبوا أن الشرف ورفعة القدر مرتبط بالسعة فى المال والكثرة فى البنين ، فبيّن لهم ـ هنا ـ أن هذا منهم فَهْمٌ خاطئ ومعتقد باطل ، ووضع بين يدي الدنيا كلها حقيقة مَنْ تجب له الشرف ، ويستحق

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي ٢٣ / ٢٨٢ .

علو المنزلة ورفعة القدر فى الدنيا والآخرة ، وهم الذين جمعوا فى قلوبهم الإيمان ، واستحضروا خشية الديان ، ونهضوا بالتكاليف والواجبات ، ومع كل ذلك يخشون ألاَّ يقبل منهم هذا ، لإحساسهم بالتقصير فى جنب الملك القدير .

ثم بين سبحانه أن تلك اليقظة التى امتلكها أهل الإيمان فقادتهم إلى ما مضى من الصفات ، ليست فوق طاقة النفس ، أو مقدور القدرة البشرية وإنما هي فى حدود ما منحهم الله من القدرة على تحمل التكاليف ، بشرط أن يخالط نور الإيمان بشاشة القلوب ، فقال : (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ...) وهذا القول فى الوقت ذاته خبر مراد منه لازمه ، وهو تسجيل التقصير على الذين تقطعوا أمرهم بينهم ، وقطع المعذرة فى عدم إيمانهم بما جاء به رسولهم ، ومن ثَمَّ فهو محاسبهم على هذا التقصير ومسجل ذلك فى (كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾) . (١)

ثم زاد النظم الكريم الحالة بيانًا والصورة وضوحًا حين ذكر أن سبب هذا الإعراض والصدِّ والعناد ، هو أنّ قلوب هؤلاء الكافرين فى غمرة من الضلال ، وهذه بلوى أشد ومصيبة عظمى ؛ لأنهم بذلك فى ترقٍ فى درج التيه ، حيث قال عنهم قبل قليل : (فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ) فكان الحديث عن ضلال نفوسهم على وجه العموم ، أما هنا فقال :

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾)

فالغمرة قد تسللت وأحاطت بمحل نظر الله إليهم وهي القلوب ، ومن ثمّ فالمصيبة قد تفاقمت ، والبلية تعاظمت ، لأنه لا أمل . والحال كذلك . فى دخول الإيمان فيها أو خروج الكفر منها ، وليت الأمر قد انتهى إلى ضلال القلوب فحسب ، بل زادوا على

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٨ / ٧٩ .

غمرة القلوب فى الضلال والإعراض عن الحق أن لهم من فساد السعي أعمالاً كثيرة تزيد ضلالهم ضلالاً وفسادهم فسادا .

وكأنّ النظم الكريم يمهد بهذه الغمرة التى أصابت تلك القلوب ، وبتلك الأعمال التى اجترحوها ، إلى الأثر المترتب على ذلك وهو أخذهم بعذاب من عنده جلّ فى علاه ، ومن هنا قال :

(حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾) ، و (حتى) هنا تطوى وراءها مساحات من الزمن ممتدة ، ظل فيها هؤلاء فى غمرة قلوبهم يتجرعون كؤوس الضلال ، ويجترحون سيء الأعمال ، وخصّ المترفين هنا دون العامة والأتباع ؛ لأنهم أول من يرفع راية التكذيب والعناد ، وينأى عن داعي الهدى والرشاد ، فإذا ما رفعوا أصواتهم بالتضرع والانكسار ، جاءهم الردّ المشتمل على التيئيس من الإغاثة والنصرة ، فيقال لهم : (لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾) ثم بين لهم السبب فى عدم الإغاثة والنصرة فقال : (قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾) .

أي : ترجعون عن الخير رجوع كبر وبطر ، واستعلاء على داعي الحق ، حال كونكم (مستكبرين) بهذا النكوص ، معرضين عنه ، متسامرين بهذا الإعراض فى مجالسكم بقول فاحش بذيء . (١)

ثم ينتقل النظم إلى بيان أسباب تلك الغمرة التى اجتاحت قلوبهم ورانت عليها فيقول : ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ

(١) ينظر : نظم الدرر ١٣ / ١٦٣ ، ١٦٤ .

لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (المؤمنون ٦٨ : ٧٠) .

وهذه الاستفهامات التى جاء بعضها عقب بعض ، دالة على الإنكار والتوبيخ على عدم الإيمان بما جاء به رسولهم ، وهي بمفهوم المخالفة فيها ينبغي أن تكون سببًا لانقيادهم إلى الحق ؛ لأن التدبر فيما جاء به الرسول ، والنظر فى سير الماضين ومعرفة الرسول ذاتًا وأوصافًا ، وبراءته من الجنون ، ينبغي أن تكون هاديًا إلى الصراط المستقيم ، ولكنه لما جاءهم بما حال بينهم وبين أهوائهم من الانغماس فى الباطل ، ولم يجدوا له مدفعًا لأنه الحق ، نسبوه إلى الجنون (بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ) . [١]

ثم بين سبحانه أن هذا الحق الذى هم له كارهون ، لو جاء بما تهواه أنفسهم وتميل إليه شهواتهم ﴿ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ ﴾ (المؤمنون ٧١) ، ثم شنّع عليهم الإعراض عما فيه شرفهم وهو القرآن فقال : (بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ) . [٢]

وكأنَّ هذا الإعراض ، وذلك التولى إنما مرده إلى لعاعة من متاع الدنيا يطلبها منهم رسولهم الأكرم ، مقابل تبليغهم هذا الذكر العظيم ، ومن هنا قال : (أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا) أي : أجراً على أداء الرسالة ، ثم نبّه سبحانه على أنَّ عطاء الله لنبيه خير له مما سواه فقال : (فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ) ولكنه بين بعد هذا أن الذى يطلبه منهم رسولهم . ليس أجرًا . إنما هو هدايتهم إلى الصراط المستقيم فقال : (وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ) ولكن الذين ضلت قلوبهم عن

(١) البحر المحيط ٧ / ٥٧٤ بتصرف .

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود ٦ / ١٤٤ .

أي صراط سوىً معرضون ، ومن ثم قال مؤكدًا هذا المعنى : (وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾) .

وراجع ما مضى من قوله : (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ) إلى قوله: (وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ) تجده فى شأن المترفين والسادة المتكبرين ، وهؤلاء لا تستمليهم إلى الهدى نعمة ، ولا تدفعهم إليه نقمة ، وعليه فمآلهم إلى العقاب والعذاب ، ولو قدِّر ورفع عنهم لتمادوا فى طغيانهم على غير بصيرة من أمرهم ، حتى يفاجئهم عذاب الحق سبحانه فى الآخرة فإذا (هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ) أي : (متحيرون يائسون من كل خير) . [1]

ولما أعرض هؤلاء عن الذكر الذى جاءهم ، ولم يتدبروا ما يتلى عليهم منه ، ذكرهم سبحانه بنعم منحها لهم تعينهم على الاستجابة لنداء الحق وقبول دعوته فقال :

(وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ) " ولكنَّ الكثير منهم عطلوا وسائل الإدراك فى هذه النعم ، فلم يستمعوا لداعي الهدى ، ولم ينظروا فى الآيات الدالة على خالق الكون ،ولم يتفكروا فيها ، وكأنهم بذلك لم يؤدوا شكرها ، ولم يعرفوا لها قدرها ، ومن هنا كان ختام الآية (قَلِيلاً مَّا تَشۡكُرُونَ) ومن جملة نعمه سبحانه عليهم أن هيأ لهم أمر المعيشة فى الأرض ووسائل التنقل فيها فقال : (وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ) بالخلق والتناسل والتكاثر ، وتلك هي نعمة الحياة ، ولكنها بأجل محدد ، ونهايتها إلى الواحد المعبود ، ومن هنا نبّه إلى هذا بقوله:

(١) معاني القرآن للنحاس ٤ / ٤٨٠ تح / محمد علي الصابوني . جامعة أم القرى . مكة المكرمة . ط الأولى ١٤٠٩هـ .

(وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) والحشر يقتضي الإماتة ، وهي . أيضًا . من نعم الله على خلقه ، ليجازي المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، ومن ثم جمع الحق بين النعمتين فقال : (وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ) فليس لأحد القدرة على ذلك إلا هو سبحانه ، كما ليس لأحد القدرة على اختلاف أطوار الليل والنهار (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) هذه الأشياء ، وتذكرون دلائل قدرته على الإماتة والإحياء .

وكأن النظم بالحديث عن دلائل القدرة على الإماتة والإحياء ، يمهد إلى بيان موقفهم من البعث بعد الموت ، وإلى إنكارهم إياه ، كما أنكر الأولون فقال : (بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) ، وإنكار هؤلاء أمر البعث والقدرة عليه يتناقض تماماً مع اعترافهم بطلاقة قدرته . سبحانه . على الخلق والإيجاد ، وبقيوميته على أمر السموات والأرض ، وذلك بيّن فى إقرارهم بهذا عند سؤالهم (قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ) .

وقوله : (لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ) واعترافهم بأنها لله ، يسجل عليهم . ضمنًا . إقرارهم بأمر البعث ؛ لأنهم من جملة مَنْ فى الأرض ، الواقع فى ملكية الحق . سبحانه وتعالى . إذاً فإحياؤهم بعد موتهم أهون عليه من خلقهم من العدم المحض .

ومن الملاحظ أن النظم ترقى معهم فى السؤال من الأدنى إلى الأعلى فبدأ

بالسؤال عن الأرض وجعل بإزاء ذلك التذكر والتفكر ، ثم ترقى إلى السؤال عن ربوبية السموات السبع والعرش العظيم ، وجعل بإزاء ذلك التقوى (أَفَلَا تَتَّقُونَ) والتقوى أبلغ من التذكر ، أي : أفلا تحذرون وتتقون عذابه سبحانه بترك عبادة الأوثان ، والاعتراف بجواز الإعادة بعد الإماتة ، ثم ترقى معهم إلى ما هو أعم من الأرض والسموات فقال : (قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ) مما ذكر ومالم يذكر ، وأعلمهم أنه لا حكم لأحد عليه بقوله : (وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) ومع اعترافهم بأن ذلك كله لله ، وانصرافهم . فى الوقت ذاته . عن عبادته إلى ما سواه ، جعلهم كأنهم مصابون بالسحر الذى يقلب فى أعينهم حقيقة الأشياء ، ومن ثم ختمت الأسئلة بقوله : (فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ) أي كيف تخدعون عن توحيده وطاعته . جل فى علاه . مع اعترافكم بأن له ما فى الأرض وما فى السماء .[1]

ثم بعد هذه الأسئلة وتلك المحاورة يأتي تقرير أمر التوحيد وبطلان ما ادّعوه كذبًا عليه سبحانه ، وذلك فى قوله :

(بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) حيث أبطل النظم كونهم مسحورين ، بقوله : (بَلْ أَتَيْنَٰهُم ...) كيف وما جاءهم به الرسول حق لا ريب فيه ، ثم قرّر كذبهم فيما يدعونه من نسبة الولد إليه . سبحانه . وأن يكون له شريك فى ملكه ، وذلك فى قوله : (مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ) ثم استوفى الدليل

(١) ينظر : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز . لابن عطية . ٤ / ١٥٣ ، تح/ عبدالسلام عبد الشافي محمد . دار الكتب العلمية . بيروت . ط الأولى ١٤٢٢هـ.

على بطلان هذه الدعوى بقوله : (إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) أي: لانفرد كل واحد بخلقه الذى خلقه واستبّد به ، ولعلا بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ، ولكن الأمر على خلاف ذلك ، فليس هناك أثر لهذا التمايز فى الممالك والتغالب ، ومن ثم فاْعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شئ . (١)

ولما اقتضى هذا الدليل بطلان قولهم باتخاذ الولد والشريك ، عقب الدليل بتنزيه الله عن أقوال المشركين بقوله : (سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) ثم أتبع ذلك بما يدل على التقديس وعموم العلم والإحاطة بكل شئ فقال : (عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) وتبرأ عما لا يليق به جلَّ فى علاه . (٢)

ولما أنهى النظم الكريم الحديث عن المشركين وتكذيبهم فيما نسبوه إليه سبحانه التفت إلى النبي . ﷺ . وأمره بالدعاء بالنجاة مما توعدهم به . لكذبهم عليه سبحانه . فقال :

(قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾) .

أي : إن كان ولابد أن تريني العذاب الواقع بهم (فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ) ومعلوم أنه . عليه الصلاة والسلام . فى منجاة من أن يكون مع القوم الظالمين ، حين يحل بهم ما أراده ربهم ، ولكن ذلك تعليم له من ربه . عليه الصلاة

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي ٢٣ / ٢٩١ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٨ / ١١٦ ، ١١٧ .

والسلام . كيف يتواضع ويهضم نفسه ، وتعليم لمن بعده من أمته ألا يأمنوا مكر الله . جلّ فى علاه . ، ثم لما كان المشركون ينكرون نزول العذاب ويسخرون منه . ﷺ . إذا ذَكَرَ لهم ذلك = أكّد سبحانه قدرته على ذلك فقال : (وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ) ثم أمره بالصبر على أذاهم بقوله : (ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) أي : عامل مكذبيك بالحسنى وقابل إساءتهم بالإحسان حتى يعلموا سماحة الإسلام ومكارم أخلاقه ، ولما كان دفع السيئة بالحسنة مما يصعب على النفس ، ويضيق بالصدر ، وكان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فيأمر ويوسوس بغير هذا = علمّ الله الأمة فى شخص رسول الله . ﷺ ـ ما يقويها على ما أرشد إليه من العفو والتسامح ، ومقابلة السيئة بالحسنة فقال : (وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ) وهي سورات الغضب التى لا يملك الإنسان فيها نفسه ، ثم أمر بالتعوذ بالله من حضور الشياطين بعد التعوذ من همزاتهم فقال : (وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ) لأنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة والإغراء بالشر والصدّ عن الخير . [١]

ويُحتمل أن تكون الاستعاذة من حضور الشياطين مراداً بها ساعة الوفاة . وليس ذلك ببعيد . لأن ما تلاه النظم من ختام آيات السورة عن الموت والبعث يرشح هذا ويقويه ، ومن هنا جاء :

(١) ينظر : فتح البيان فى مقاصد القرآن لأبي الطيب محمد القِنَّوْجي ٩ / ١٤٦ : ١٤٨ تح عبد الله بن إبراهيم الأنصاري . المكتبة العصرية . صيدا . بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م

المبحث السادس

بعنوان : (الموت والبعث ومصير الفريقين) [(١)]

وفى ذلك يقول سبحانـه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا
تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ
فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ
فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ
أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ
فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ
بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا
أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾
أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا

---

(١) عنوان هذا المبحث مأخوذ من قول الشيخ : " وأن ما قال عن الله حق . يعني النبي ـ ﷺ ـ من إثبات الوحدانية ونفي الشريك وأمور الدار الآخرة للمطيعين والعاصين حسبما اقتضاه الحال والوصف للفريقين " ، الموفقات ٢٧٣/٤ .

حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (المؤمنون ٩٩ : ١١٨) .

حيث تبدأ الصورة هنا برسم مشهد الاحتضار (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ) ومعلوم أنّ من يطلب الرجعة عند الموت إنما هو الكافر ، حيث تكشف أمام عينيه ما كان غائبًا عنه من أمور الآخرة ، فرأى ما هاله وأفزعه ، حتى جعله يطلب الرجعة إلى ما كان فيه وأتّى له ذلك.

وجملة الترجي (لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) فى موضع العلة لمضمون (ارجعون) ، والترك إما أن يكون مستعملاً فى حقيقته ، أي : فيما خليته وفارقته من عالم الدنيا ، أو فى معناه المجازي وهو : الإعراض والرفض ، والمعنى : لعلى أسلم وأعمل صالحًا فى حالة إسلامي الذى رفضته من قبل ، فاشتمل هذا المعنى على وعدٍ بالامتثال ، واعتراف بالخطأ فيما سلف ، وقد رُكب بهذا النظم الموجز قضاءً لحق البلاغة . (١)

وبعد ترجى هذا الكافر المغادر دار الدنيا بعد لحظات ، يأتي الردُّ من قبل مالك الأرض والسموات ، ولكنه رد لا يوجه إلى الكافر خاصة ، وإنما يعلن على رؤوس الأشهاد (كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ) أي : كلمة لا معنى لها ولا ينبغي العناية بها أو بقائلها ؛ لأنها كلمة قيلت بسبب الضيق والموقف الرهيب ، وليست كلمة الإخلاص المنيب ، وبهذه الكلمة ينتهي مشهد الاحتضار ، ويفارق الدنيا هذا الشقي الكفار ، فإذا الحواجز قائمة بينه وبين دنياه ، وإذا بالصلات قد انقطعت ،

(١) التحرير والتنوير ١٨ / ١٢٣ بتصرف .

وبالأبواب قد أغلقت (وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) . [١]

وكأن ذكر البرزخ والمكث فيه يمهد إلى استحضار مشاهد القيامة التى فيها يبعثون ، ومن ثم قال : (فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ) والمراد بالنفخة هنا نفخة النشور التى يخرجون فيها من القبور ، وعندها تنقطع الروابط التى بينهم ، وتسقط نعرات التفاخر بالأحساب والأنساب ، التى طالما رفعوا لها الرايات وجعلوها فى المكرمات ، (فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ) لما هم فيه من هول الموقف ، وفرط الحيرة ، واستيلاء الدهشة على الجميع ، وذلك : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (عبس ٣٤ : ٣٧) ، فإذا ما سقطت الأنساب فى هذا اليوم ، فلا تراهم يتعاطفون (وَلَا يَتَسَآءَلُونَ) أي : لا يسأل بعضهم بعضا النصرة والمعونة بالرحم التى بينهم ؛ لأن لكل منهم شغلاً عن غيره بخاصة نفسه . [٢]

فلما عُلم فى ذلك اليوم أنه لا نصرة بالأنساب ولا معونة بالأحساب ، بين الحق سبحانه بأي شئ يكون انتصار المرء فى ذلك اليوم ، ونبّه إلى أن المعونة والنصرة فيه تكون بالأعمال الصالحة ، وأن القصاص بين الناس إنما هو بميزان دقيق توزن فيه أعمال العبد ، ومن هنا قال : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ

(١) ينظر : فى ظلال القرآن للشيخ / سيد قطب ١٨ / ٢٤٨٠ ، ٢٤٨١ . دار الشروق . الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م .

(٢) ينظر : فتح البيان فى مقاصد القرآن ٩ / ١٥١ .

خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ . [١]

والناظر إلى آيتي الموازين يجد فى الآية الأولى تصويرًا لكثرة الأعمال وكثرتها فى الميزان ، ويقابلها فى الآية الثانية صورةأخرى تتواصل مع الأولى فى السياق ، ولكن عن طريق التضاد ؛ لإبراز الفروق بين الأعمال الصالحة وما يترتب عليها من الفلاح ، وبين الأعمال الطالحة وما ينشأ عنها من الخسران والخذلان ، كما يلاحظ هنا الإجمال فى صورة الجزاء على الأعمال الصالحة ، حيث حصرها النظم فى ثلاث كلمات (فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ) ، ولكنّ هذه الكلمات الثلاث تلقي فى الحسِّ والخيال ألواناً من الفلاح والانشراح الذي يشعر به هؤلاء المؤمنون ، وما يترتب عليه من العيش الرغيد والرضا الهنيء ، أما في صورة العقاب فقد جاءت أكثر تفصيلاً وإثارة [٢] حيث ذكرت لأولئك الأشقياء أربع صفات متواليات متمثلة فى قوله تعالى : (فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ) (فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ) (تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ) (وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ) .

وخسران النفس استعارة تمثيلية لبيان حال خيبتهم فيما كانوا يأملونه من شفاعة الأصنام ، أو نجاتهم من العذاب . إن قُدِّر وكان . على حسب ظنهم ، ودلالة قوله : (فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ) على خلودهم فى النار بينة ، فلا أمل فى الخلاص ، ولا سبيل إلى الخروج منها ، ثم يُزادون درجة من العذاب بأن (تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ) واللفح : شدة إصابة النار ، وخصت الوجوه هنا ؛ لأنها موضع إظهار العزة والكبرياء ، فالعذاب فيها أبين ، والذلة عليها أوضح ، ومن ثم ختم هذه الصفات بقوله : (وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ) والكلوح: أن تتقلص الشفتان ، ويتباعَدَا عن الأسنان

(١) ينظر : نظم الدرر للبقاعي ١٣ / ١٨٧ .

(٢) ينظر : وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ص١٣٠ .

كما ترى ذلك فى الرؤوس المشوية . [١]

ولما كان من شأن المُعَذَّب أن يُعنف فى الخطاب ، ويُقرع بالعتاب ، عدل النظم عن أسلوب الحكاية إلى الخطاب تقريعًا وتوبيخًا لهم . لبيان السبب فيما هم فيه . فقال :

(أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) والآيات هي القرآن ، بدليل قوله : (تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) والإضافة فيها للتشريف والتعظيم (آياتي) والتعبير بالمضارع (تتلى) يفيد تجدد أمر التلاوة والتذكير بها مراراً وتكراراً ، وكان حق هؤلاء بعد كل ذلك أن يكونوا أول المؤمنين بآيات ربهم وتصديق نبيهم ، ولكنهم لفرط شقاوتهم صاروا بها مكذبين ولرسولهم من المعاندين .

ومن ثم لما مسهم العذاب ، وتيقنوا من جزاء المكذبين ، اعترفوا بقيام حجة الله عليهم فى سوء صنيعهم فـ (قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ) أي : تمكن منا سلطان الهوى والعناد ، حتى قادنا إلى سوء العذاب ، وكأنهم بذلك يبدون العذر الصارف لهم عن الإيمان ويتلمسون من ورائه العفو والإحسان ، ومن ثم تجدهم قد صدّروا مقولتهم هنا بلفظ الربوبية (ربنا) الدال على واسع الإنعام والعطاء ، راجين أن يكون وسيلة لهم فى خروجهم من هذا العذاب الأليم ، ومن ثَمَّ تدرجوا من إبداء العذر والإقرار بالذنب ، إلى الرغبة والتضرع فأعادوا لفظ الربوبية فى دعاء الخلاص من النار ، فقالوا :

(رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا) ولما أرادوا تأكيد التزامهم بما يأمرهم به سبحانه قالوا : (فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ) وكأنهم يعترفون على أنفسهم بظلمهم الذى أوردهم دار العقاب ، وأحل بهم سوء العذاب ، وكأنهم بدعائهم هذا ينتظرون الردَّ وسرعة

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي ٢٣ / ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

الاستجابة ، ولكنْ ما جاءهم كان على غير ما يرجونه ، وبأسلوب لا يتوقعونه ، حيث قال لهم الحق ـ جلَّ فى علاه ـ : (ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) والمعنى : " ذِلّوا فيها وانزجروا كما تنزجرُ الكلاب ولا تكلمون فى رفع العذاب ، فإنه لا يُرفع ولا يخفف " . (١)

ثم بين الحق سبحانه لهؤلاء أن جرمهم لم يكن الكفر وتكذيب الرسل فقط ، بل تجاوزا ذلك إلى السخرية ممن تسربل برداء الإيمان ، وملأ ما بين جنبيه بدعوات العفو والغفران ، فقال :

(إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ) ، وانظر إلى قوله : (فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا) وما يفيده الاتخاذ من جعلهم ضعاف المؤمنين مادة ومحلا للسخرية والاستهزاء ، وكأنهم بهذا يقدحون زناد أفكارهم فى استخراج أقصى صور السخرية المتمثلة فى الغمز واللمز والإشارات والعبارات ، للنيل ممن آمن بالله وصدق برسوله ـ ﷺ ـ ألا لعنة الله على الظالمين .

وحتى في قوله : (حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي) تطوى وراءها مساحات من الزمن ممتدة ، ظلَّ فيها هؤلاء الأشقياء يسخرون من الذين آمنوا ، ويستهزؤن بالضعفاء منهم ، دون أن يكون لهم مللُ من ذلك ، حتى ألهتهم تلك السخرية وهذا الاستهزاء عن التفكر والتأمل في دلائل الإيمان ، والاعتراف بالواحد الديان .

وكأن قوله : (وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ) ـ من حيث المعنى ـ ردٌّ لعجز الآية على صدرها ، ليدل على تأكيد أمر السخرية ؛ لأن الضحك هنا من توابع السخرية ، والسخرية من دلائلها الضحك ، وكأنهم بذلك قد استوفوا كلَّ مقومات السخرية ،

(١) الكشاف ٣ / ٢٠٤ .

وأدوات الاستهزاء ممن آمن بالله وصدّق برسوله ـ ﷺ ـ .

ولما أراد الحق سبحانه أن يزيد هؤلاء الأشقياء من العذاب المعنوي فوق ما هم فيه من العذاب الحسي ، بين لهم جزاء صبر المؤمنين على استهزائهم وسخريتهم ، فقال : (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ) .

ولاحظ كيف صدّر الحق ـ سبحانه ـ الآية بالتوكيد (إنِّي) ولا أظنّ أنَّ التوكيد هنا لإزالة الشك من نفوسهم ، لأنه ليس فى الآخرة شك فى قول الحق وإعلامه ، وإنما التوكيد لزيادة الحسرة فى نفوسهم ببيان توكيد الإكرام لمن كانوا بهم يستهزؤن ومنهم يضحكون .

ثم أراد الحق ـ سبحانه ـ أن يبين لهؤلاء قصر مدة مكثهم فى دار الدنيا وتحقير شأنها بالنسبة إلى الآخرة ، وأنه ما كان لهم أن يضيعوا هذا النعيم الأخروي ، ويبيعوا دار الخلود بعدم تحملهم تكاليف الرسالات مدة قليلة فـ (قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ) ، والسؤال هنا سؤال توبيخ وتبكيت ، إذ كيف يبيعون الآخرة وما فيها بمتاع من الدنيا قليل ، وانظر كيف كان السؤال عن اللبث (عَدَدَ سِنِينَ) وكيف كانت الإجابة (يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) ولا مقارنة بين السنين واليوم أو بعضه فى المدة ، ولكنهم أرادوا من ذلك (تصغير لبثهم وتحقيره بالإضافة إلى ما وقعوا فيه وعرفوه من أليم العذاب) . [1]

وكأن كلامهم صدّق واقعهم الأخروي في تَقَالِّهم مدة مكثهم فى الدنيا ومن هنا أكد الحق ذلك فـ (قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) ثم بين لهم سبحانه أن عملية الخلق والإيجاد على ظهر الأرض إنما هي آية من آيات الله ، التي لا يمكن أن تكون خالية من غاية كبرى أو مقصدٍ أسمى فلم يخلق سبحانه

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٣ / ٢٩٨ .

الخلق . وهم من جملة ما خلق . هملاً ولا عبثًا فقال :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) للحساب والجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسيء ، [١] ولما كان التقدير : ليس الأمر كما حسبتم ، علل ذلك بقوله : (فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ) أي : تنزه سبحانه عن الخلق والإيجاد دون فائدة أو قصد يرجى منه ، وتعالى عن أن تشردوا من قبضته أو تخرجوا عن نفوذه . [٢]

ثم قرر قاعدة الإيمان الأولى التى استهل بها السورة فقال :

(لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ) ليعلمهم أن الخروج عن هذا التوحيد إلى التعدد والإشراك به سبحانه ضرب من الخسران والخذلان ، يقود إلى الوبال وسوء المآل ، ومن ثم قال : (وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ) ، ثم يرشد سبحانه أهل الإيمان . فى شخصية خير الأنام . ﷺ . بدوام اللجوء إليه تعالى ، ودعائه بالمغفرة والرحمة ؛ لأنه الحصن الحصين والركن المتين الذي لا يخذل أولياءه ، ولا يترك أصفياءه ، فيقول : (وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ) .

وانظر كيف بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين (قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ) ثم خُتمت بنفي الفلاح عن الكافرين (إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ) وشتان ما بين

(١) ينظر : الأساس فى التفسير . سعيد حَوّى ٧ / ٣٦٧٠ . دار السلام . القاهرة ، ط السادسة ١٤٢٤هـ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ١٣ / ١٩٦ .

الفاتحة والخاتمة . [١]

وفي ذلك ضرب من ردَ العجز على الصدر [٢] وفيه كذلك ما يعرف : ببراعة الابتداء وبراعة الانتهاء كما قال بعض أهل العلم . [٣]

وبعد : فتلك كانت مباحث السورة ومعاقدها ، الناتجة من كلام الإمام الشاطبي عنها ، وتبين بعد طول متابعة أنها . كما قال الشيخ . نازلة فى قضية واحدة ، استهلت بها السورة ، وهي قضية الإيمان (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١) سواء أكان الإيمان بتقرير الوحدانية ، أم بتقرير أمر النبوة أم بإثبات البعث والدار الآخرة ، وقد حاول الباحث الكشف عن ترابط هاتيك المعاقد بعضها مع بعض ثم بيان التحام بنائها ، واتساق معانيها لخدمة مقصود السورة ، وكيف تناسق بناء تراكيبها ، وتعانقت معانيها وتهادت بين العبارتين (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١) التي صدرت بها السورة ، وبين (إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ) التى ختمت بها ، ليتبين من ذلك عدم انفصال نظمها عن بعض ، وإنما كان الأول منها مهادًا لثانيها ، وثانيها توطئة لثالثها ... وهكذا حتى حطّ النظم رحله الكريم عند قوله تعالى : (إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،،

(١) ينظر : تفسير أبي السعود ٦ / ١٥٤ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٨ / ١٣٦ .

(٣) ينظر : علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن ٢٩٩ .

الخاتمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيّ بعده ، وعلى آله وصحبه ومَنْ أحبه ... وبعد ،،،

فبعد هذه الرحلة الإيمانية مع سورة " المؤمنون " يتعين على الباحث أن يذكر أهم النتائج التي وقع عليها البصر وكانت محل النظر،وهي :

أولاً : التقت النظرة الكلية التى قال بها الإمام حول السورة ، مع معاقدها التي بنيت عليها ، فنتج عن ذلك التأكيد على دوران السورة على قضية واحدة ، هي قضية الإيمان ، سواء أكان الإيمان بالله ، أو بالنبوة ، أو بالبعث ، ومن هنا كان افتتاحها بـ (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) وختامها بـ (إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ) من دلائل وحدة موضوعها .

ثانياً : البدء بالخشوع في الصلاة (ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝) مناسب لما تناثر في السورة من الوصف بالخشوع ، أو الدعوة إليه ، أو النعي على عدم التلبس به .

ثالثاً : اتفاق الرسل على مرّ العصور على دعوة واحدة ، هي الإيمان بالله تعالى ، واتفاق الأمم التابعة لهم على التمسك بعلة رئيسة في رفض هذه الدعوة ، وهي بشرية الرسل .

رابعًا : الصدّ والإعراض عن دعوة الرسل دائمًا ما يتصدر مشهده الملأ والمستكبرون من أمة الدعوة .

خامساً : كل ما ورد عن الكفار الغاضّين من قدر النبوة بوصف البشرية ، وما حلَّ بهم من العذاب ، إنما هو تسلية للنبي ـ ﷺ ـ وتخفيف له عما يلاقيه من الأذى والإعراض ، وتثبيت لنفسه ـ عليه السلام ـ بأن نصر الله قادم لا محالة .

سادساً : الإجمال فى ذكر ثواب الأعمال الصالحة (فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ

) (هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ) وذلك لتذهب النفس كل مذهب فى ألوان الفلاح والانشراح والفوز الذي أُعد لهؤلاء المؤمنين ، أما فى جانب المكذبين فقد عمد النظم إلى التفصيل فى ذكر عذابهم ، كما فى قوله: (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ) وما ذاك إلا للتخويف وإلقاء الرعب فى نفوس هؤلاء ، حتى كأنهم يشاهدون ما يُعد لهم فى الآخرة ، ليقطع عليهم الحجة فى عدم معرفة ما يؤول إليه أمرهم إن هم كذبوا .

وبعد ، فهذا جهد متواضع فى الكشف عن البناء البياني لسورة المؤمنون كما قرره الإمام الشاطبي في موافقاته ، حاولت فيه أن أميط اللثام عن التناسب بين لبنات هذه السورة ، والتلاحم بين معاقدها المتعددة ، فإن أصبت فذاك الذي أردت ، وإن كانت الأخرى ، فحسبي شرف المحاولة ، والله من وراء القصد . **وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم** .

المصادر والمراجع

١. الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي . تح / محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

٢. الأساس فى التفسير . سعيد حَوَّى . دار السلام القاهرة . ط السادسة ١٤٢٤هـ .

٣. البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي . تح / صدقي محمد جبل . دار الفكر . بيروت . ١٤٢٠هـ .

٤. البرهان فى علوم القرآن للزركشي . تح / محمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية . ط الأولى ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .

٥. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور . الدار التونسية . تونس ١٩٨٤م .

٦. تفسير أبي السعود . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

٧. التفسير البياني للقرآن الكريم . بنت الشاطئ . دار المعارف . القاهرة . ط السابعة .

٨. التفسير الكبير للفخر الرازي . دار إحياء التراث العربي . بيروت ط الثالثة ١٤٢٠هـ .

٩. التفسير الموضوعي . نظرية وتطبيقًا . أحمد رحماني . منشورات جامعة باتنة . الجزائر ١٩٩٨م .

١٠. جهد الشاطبي فى التفسير الموضوعي الكشفي . د/ أحمد عثمان رحماني . مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية . دبي . العدد السابع والعشرون ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

١١. جواهر البيان فى تناسب سور القرآن . عبد الله محمد صديق الغمارى . مكتبة القاهرة . علي يوسف سليمان .

١٢. الطراز لأسرار البلاغة ليحيى بن حمزة العلوي . المكتبة العنصرية . بيروت . ط الأولى ١٤٢٣هـ .

١٣. علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم . أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد . مكتبة الإيمان . ط الأولى . ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م .

١٤. فتح البيان فى مقاصد القرآن . لأبي الطيب محمد القنوجي . تح/ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري . المكتبة العصرية . صيدا . بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
١٥. فى ظلال القرآن . سيد قطب . دار الشروق . الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م .
١٦. الكشاف للزمخشري . دار الكتاب العربي . بيروت . ط الثالثة ١٤٠٧هـ .
١٧. لسان العرب لابن منظور . دار صادر . بيروت . ط الثالثة ١٤١٤هـ.
١٨. لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل . فاضل صالح السامرائي . دار عمار للنشر . الأردن . عمان . ط الثالثة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م .
١٩. مباحث فى التفسير الموضوعي . مصطفى مسلم . دار القلم . ط الرابعة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .
٢٠. مباحث فى علوم القرآن . مناع القطان . مكتبة المعارف للنشر والتوزيع . ط الثالثة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .
٢١. المحرر الوجيز لابن عطية . تح / عبد السلام عبد الشافي محمد . دار الكتب العلمية . بيروت . ط الأولى ١٤٢٢هـ .
٢٢. المدخل لدراسة القرآن الكريم . محمد أبو شهبة . مكتبة السنة . القاهرة . ط الثانية ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م .
٢٣. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي . مكتبة المعارف . الرياض . ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .
٢٤. معاني القرآن للنحاس . تح / محمد علي الصابوني . جامعة أم القرى . مكة المكرمة . ط الأولى ١٤٠٩هـ .

٢٥. معجم المؤلفين . عمر رضا كحالة . مكتبة المثنى . بيروت . دار إحياء التراث العربي .
٢٦. مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري . تح / مازن المبارك . دار الفكر . دمشق . ط السادسة ١٩٨٥م .
٢٧. ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي . تح / عبد الغني محمد علي الفاسي . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان .
٢٨. من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم (الفاء وثم) د/ محمد الأمين الخضري . مكتبة وهبة . ط الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
٢٩. الموافقات فى أصول الشرعية لأبي إسحاق الشاطبي . تح / أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان . دار ابن عفان . ط الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
٣٠. الموسوعة القرآنية المتخصصة . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . مصر ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .
٣١. نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور . البقاعي . الدار السلفية وطبعة أخرى ، دار الكتاب الإسلامي . القاهرة .
٣٢. وحدة السورة القرآنية . بين القبول والرفض . د/ محمود توفيق محمد سعد . مجلة الفيصل . العدد (١١١) ١٩٨٦م .
٣٣. وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم . عبد السلام أحمد الراغب . فصلت للدراسات والترجمة . حلب . ط الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .